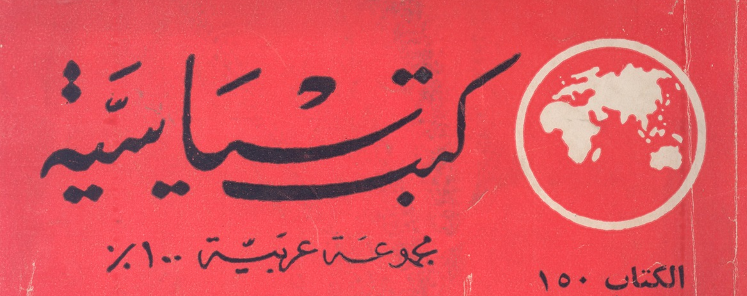


الكتاب ١٥٠

أزيلوا.. إسرائيل

هذا هو الحل



للكاتبة الأمريكية

إيليس بيتي

كتب سياسية
الكتاب ١٥٠

أزيلوا.. إسرائيل

هذا هو الحل

للكاتبة الأمريكية

إيلين بيتي

مقدمة

أخى العربى

ليس الهدف من نشر هذا الكتاب هو اظهار اسرائيل بمظهر المعتدى ، فذلك أمر مفروغ منه . ولكن الهدف هو اظهار وجهة النظر الامريكية ، ومدى وقوفها بعلمها وجهلها للقضية الفلسطينية بصفة عامة ومؤازرتها للعناصر الصهيونية بصفة خاصة .

واذا كان الصهيونيون قادرين على اخفاء فظائعهم وجرائمهم لحين من الوقت ، وذلك بالسيطرة على أجهزة الدعاية المأجورة ، الوجهة التى يرونها ، الا أن ذلك لم يلبث أن انكشف أمام العالم اجمع واتضح للبشرية أن الصهيونية خطة تبناها أغنى أغنياء اليهود فى العالم للسيطرة على مقدرات الامور فى الارض واخضاع البشرية لمشيئتها .

والخطر الصهيونى والاسرائيلى الذى يعتبر اعلانا عن الخطر الاول لا يمسان العالم العربى فحسب ، ولكنهما يمسان مصير العالم اجمع واذا كانت الصهيونية تظهر آثارها البشعة الآن فى اسرائيل فان هذه الآثار المخربة سوف تمتد اذا لم تجتث من جذورها ، فتمس حياة البشرية جميعا .

ولذلك فان الدعوة لمحاربة الصهيونية العالمية وازالة ابنها غير الشرعى (اسرائيل) انما هى دعوة للسلم والاستقرار لا فى الشرق العربى بل فى العالم اجمع .

والقارىء العربى الذى يطالع هذا الكتاب يقطع بأن اسرائيل ربيبة الصهيونية العالمية اخطر شر على الارض يجب اجتثاثه من

جذوره ، لأنها تهدد الانسانية بأفظع الجرائم والآثام وتسلك في سبيل غاياتها وآمالها المنشودة الغش والخداع والتمويه والتضليل وشراء الذمم الخربة والسرقة والنهب والسلب والقتل ، معتقدة أنها ستصل الى تحقيق الوطن المزعوم لشرذمة من الافاقين الصهيونيين معتمدة في ذلك على الدول الاستعمارية بصفة خاصة والعملاء بصفة عامة .

والكتاب جملة وتفصيلا سلسلة من الوثائق تدل دلالة قاطعة على ان الصهيونية العالمية تتآمر منذ زمن بعيد على أرض فلسطين ، وتبذل كل الوسائل المنافية للشرف لاغتصابها من أصحابها الحقيقيين ، وكان وعد بلفور المشئوم الذى يمثل اطماع الدول الاستعمارية في بلادنا بداية تاريخ اسود خطه يد المستعمر الغاصب لتقرير مصير فلسطين وفتح الباب على مصراعيه للصهيونيين فدنسوا الارض الطاهرة ولطخوها بآثامهم ، وكانت الطامة الكبرى مشروع التقسيم .

واخيرا وليس آخرا يعتبر الكتاب تحليلا رائعا للقضية الفلسطينية من الوجهة السياسية والتاريخية والروحية والانسانية ، وتفنيدا بارعا لدعاوى اسرائيل باحقيتها في فلسطين داحضا ادعاءاتها الكاذبة واسانيدها الباطلة بالوثائق والمستندات التى لا تقبل مجالا للشك .

لجنة كتب سياسية

١

الحقوق الانسانية

ان الحرب لم تعلن بعد فى الشرق الاوسط · ولكنها فى طريقها الى ذلك · وفى الامكان وقفها والحيلولة دون نشوبها · ولكن السلم لن يرفرف ، على نحو دائمى ، فى ذلك الجزء من العالم الا بعد أن يستأصل سبب القلاقل الرئيسى ، ولكن ما هو ذلك السبب الرئيسى ؟ انه النزاع بين اسرائيل والدول العربية ·

ان الرأى العام الامريكى ــ وقد تنبه للخطر فجأة ــ قد وصل الى تلك النقطة التى يتطلب فيها المرء الحقائق والوقائع · وكل حل عادل ينبغى أن يبنى على الحقائق والوقائع · والموقف اليوم يقتضى حلا عاجلا · والا فقد نجد أنفسنا مسوقين الى حرب عالمية أخرى بسبب مؤامرات الصهيونية ·

فى استطاعة كل امرىء أن يطلع على آلاف الصفحات التى تضمها تقارير هيئة الامم المتحدة عن فلسطين ــ ولكن قليل هم الذين يفعلون ذلك · ولكن ثمة ــ لحسن الحظ ــ مصدرا للمعلومات أيسر وأقرب تناولا بالنسبة الى جميع الناس · وهو خال خلوا تاما من العاطفة ، بل انه من أكثر المصادر جفافا ، وفى الوقت نفسه من أكثر المصادر وثوقا وجدارة بالاعتماد ، فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهذا المصدر هو « التقويم وكتاب الحقائق العالمى » الذى ينشر سنويا ، والذى يمكن الاطلاع عليه فى سهولة ، تحت الابواب التالية : اسرائيل ، الاردن ، فلسطين ، والعرض التاريخى السنوى للاحداث الرئيسية ·

التاريخ السياسى لفلسطين

والواقع أن فلسطين عرفت ـ خلال التاريخ ـ سلسلة طويلة متباينة من الفتوح والغزوات التى شنتها عليها شعوب أجنبية ٠ وأهلوها العرب الحاليون ، الدائمون ، يرجعون الى ما قبل ١٣٠٠ سنة ، أى الى الفتح الاسلامى فى ما بين عام ٦٣٢ وعام ٦٣٨ بعد الميلاد ، عندما تدفق أبناء الصحراء العرب الى فلسطين ، واستقروا هناك ، وظلوا مقيمين فى تلك الديار ٠ واستولت تركيا على فلسطين عام ١٥١٦ ــ ١٥١٧ ، وطوال الاربعمائة سنة التالية كان سكان فلسطين العرب خاضعين لحكومة الامبراطورية التركية وكانوا يشكلون جزءا من تلك الامبراطورية ٠

وفى الجزء الاخير من القرن التاسع عشر أنشئت الحركة الصهيونية فى أوربا الوسطى ، وحوالى السنوات الاخيرة من عهد الحكم التركى أقامت بعض المستعمرات اليهودية الصغيرة قرب شاطىء البحر الابيض المتوسط فى فلسطين التركية ٠ وقدر لتل أبيب أن تصبح فيما بعد أهم هذه المستعمرات وأخطرها شأنا ٠

ولكن الاتراك أخطأوا الاختيار فانحازوا الى معسكر القيصر الالمانى فى الحرب العالمية الاولى ٠ لقد خسروا فلسطين ، ووفقا لاتفاقيات الصلح ، وضعت عصبة الامم تلك البلاد الصغيرة ـ البالغ طولها مائة وخمسين ميلا ، والبالغ عرضها حوالى خمسة وستين ميلا ـ تحت الانتداب البريطانى ابتداء من ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ ٠

وكان اليهود فى فلسطين يمثلون عام ١٩٢٤ نحو ٦٪ أى ٧٠٪ من مجموع السكان ٠

ولكن الهجرة شجعت خلال الانتداب البريطانى ٠ ونمت تل أبيب فاصبحت مدينة كبيرة ٠ وعند انتهاء الحرب العالمية الثانية اشتدت

مطالبة اليهود فى مختلف أرجاء العالم ، واليهود الامريكيين ـ بصفة خاصة ـ بضرورة تقسيم فلسطين · وخلق دولة يهودية مستقلة ·

وتحت وطأة أهوال معسكرات الاعتقال وذكرى غرف الغـاز التى انشأها هتلر لليهود شجع الرأى العام الامريكى ، تلك الفكرة ، اننا نحن الامريكيين العاديين لم نكن نعرف شيئاتقريبا عن تاريخفلسطين السياسى خلال السنوات الـ ١٩٠٠ الاخيرة · وما كان فىميسورنا أن نجيب حتى عن سؤال واحد متصل بتاريخها الحديث ، وتحت أى انتداب تقع · أو اسم الحكومة التى سيطرت عليها قبل عهد الانتداب ولكننا عرفنا ماسبق لنا أن تعلمناه فى مدرسة الاحد (الدينية) ، وهو أن فلسطين كانت فى يوم من الايام أرض الميعاد اليهودية ،وكان اليهود فى حاجة يائسة ، الان ، الى مكان يجدون فيه الامن · وأذن كان لابد على أمريكا أن تعترف باسرائيل عام ١٩٤٨

وفى استطاعتنا أن نتأكد من أن كل متحمس لجمع المال للهاداسا، وكل زوجة يهودية أمريكية وفرت المال لتقديمه الى اسرائيل كانت تفكر فى تقديم العون الطبى لجماعة من اللاجئين الشديدى الهـزال الوافدين من أوربا ، واعادة توطينهم وتثقيف أولادهم ، وكانت نيأت الرجال اليهود الامريكيين الذين جمعوا وقدموا الملايين من الدولارات مماثلة هى الاخرى لنيات زوجاتهم ·

نياتهم كانت طيبة ، ونياتنا كانت طيبة · وليس من ريب فى أن نيات الامم المتحدة كانت هى الاخرى طيبة أيضا ·

ولكن المشروع الرامى الى خلق ملجأ آمن لليهود اخفق اخفاقا كاملا لماذا ؟ ماالعلة التى انتهت به الى هذه النتيجة ؟

لعل مرد ذلك الى أن الفريقين الرئيسيين غائبان عن لائحة ذوى النيات الطيبة هؤلاء ·

ففى عام ١٩٤٧ـ١٩٤٨ شقت الامم المتحدة فلسطين شقين ،قسمتها قسمين ، وأعطت نصفها الى الدولة التى تعرف اليوم باسرائيل . والنصف الاخر الى الفلسطينيين العرب . وهذا النصف يشكل اليوم جزءا من المملكة الاردنية الهاشمية .

ان اسرائيل اليهودية تقوم اليوم على جانب من خط التقسيم . وان الاردن العربى يقوم على الجانب الآخر من ذلك الخط . هذان هما الفريقان الرئيسيان فى تلك البقعة التى كانت تدعى فى يوم من الايام فلسطين . وكل من اسرائيل والاردن دولة مستقلة . ترسم سياستها الخارجية بنفسها .

ولو كانت سياسة هاتين الدولتين معا سياسة سلمية فعلا ، لكان منطقيا أن يستتب السلم على خط الهدنة .

ولكن كيف يستطيع المراقب الخارجى أن يعين السياسة الحقيقية لأى دولة من الدول ؟ اننا لانستطيع أن نستنتج ذلك من التصريحات والكلام . نحن نعرف ذلك ، فكثيرا ما تنادى الدول بالسلم وهى غارقة حتى الأذقان فى بحر من العدوان الدموى .

وليس فى استطاعتنا أن نحكم على سياسة دولة ما من أعمال الافراد من مواطنيها ، لان الافراد يعملون بدافع من حوافزهم الشخصية .. ووفقا للطريقة التى تهيمن على مشاعرهم . ولو نظرنا الى بلادنا بالذات اذن لكان فى ميسورنا أن ندرك ذلك . ان اللصوص وقطاع الطرق والجماعات المنظمة لاغراض الفتك والقتل ـ ان هؤلاء جميعا ليعملون هنا فى الولايات المتحدة . ولكن مثل هذه الاعمال لاتمثل سياسة الولايات المتحدة الامريكية .

ومن هنا نستنتج ما يلى : ان أعمال الافراد العاديين لا تمثل سياسة الحكومة فى الولايات .

واذا كنا منطقيين منسجمين مع أنفسنا فيجب أن نسلم بأن أعمال المواطنين الاسرائيليين العاديين لاتمثل سياسة الحكومة الاسرائيلية وأن أعمال المواطنين العرب العاديين لاتمثل سياسة فلسطين العربية التى تؤلف اليوم جزءا من المملكة الاردنية الهاشمية ٠

واذن فليس من أهداف هذا الكتاب أن يقدم لائحة بمئات الحوادث التى تقع على الحدود الفلسطينية ٠ والتى يقوم بها الافراد من كلا الجانبين ، لان هذه الحوادث ليست ذات دلالة على سياسة أى من الحكومتين ٠

والواقع أن أعمال الافراد قد تكون متناقضة تناقضا مباشرا مع سياسة حكومتهم ٠ وقد لاتؤدى الا الى صب اللوم والادانة على رأس تلك الحكومة ٠

وهكذا ٠ فاننا لانتكلم فى هذا الكتاب عن أعمال الافراد ٠

ماالذى يكشف فعلا ، اذن ، عن نيات حكومة ما وعن برنامجها الحقيقى ؟ ان الذى يكشف عن ذلك هو أعمال تلك الحكومة ٠ فقط الاعمال التى تتم بناء على أوامر حكومية تصدرها دائرة رسمية من دوائر تلك الحكومة ٠ ان جيش دولة ما ، هو أداة من أدوات حكومتها ففى استطاعتنا اذن أن نقول ــ من غير أن نخشى الوقوع فى الخطأ ــ ان الاعمال التى يقوم بها جيش دولة من الدول ٠ بناء على أوامر حكومية ٠ انما تمثل سياسة تلك الحكومة ٠

واذن ففى دراستنا للنزاع العربى الاسرائيلى سوف نقتصر على الكلام عن السياسة الحكومية لكل من الجانبين كما تدل عليها الاعمال الحكومية لا الاعمال الفردية ٠

ان أعمال كل من الدولتين سوف تظهر نية تلك الدولة الطيبة أو

السيئة ، ورغبتها فى تشريف التوقيع الذى مهرت به اتفاقية الهدنة والقاضى بالتزام الهدوء والحفاظ على الامن أو رغبتها فى خرق تلك الاتفاقية • ان عمل الحكومة هو المحك والفيصل •

من أجل ذلك سوف نتتبع سير الحوادث الناجمة عن التقسيم والتي حولت فلسطين الى ماهى عليه اليوم : قنبلة بطيئة ولكنها عنيفة موقوتة • ومن طريق تحليل النتائج التى نصل اليها نستطيع أن نكتشف حلا للمشكلة •

ولكى يصل القاضى الى حل صحيح • يراجع البيانات والشواهد • ولسوف نسلك نحن هذه السبيل •

المشكلة التى واجهت اسرائيل منذ البداية

من البدء ، عندما كانت اسرائيل جنينا ينتظر أن يرى النور ، كان عليها أن تواجه مستقبلا مثقلا بالعوائق الهائلة • ففى الرقعة التى كانت ترجو أن تحصل عليها بموجب تقسيم فلسطين كان السكان اليهود ، المكروهون من أبناء البلاد الاصليين لايشكلون غير أقلية السكان • واذا كان لاسرائيل أن تصبح دولة فعلا فقد كان عليها ان تواجه هذه المشكلة : ان المواطنين العرب العائشين فى تلك المنطقة كانوا يزيدون رعاياها عددا • ويتغلبون عليهم فى كل تصويت يمكن أن يجرى على قضية من القضايا •

وللتغلب على هذه المشكلة بدأ يهود تل ابيب، خلال سنوات الانتداب البريطاني – ١٩٢٣،١٩٤٨ – بدأوا ماكان فى أول الامر تشجيعا نظاميا ثم ماانتهى الى أن يصبح تبنيا هائجا وغير شرعى لحركة المهاجرة الى فلسطين • فراحوا يستقلمون المهاجرين الذين لم يكن لهم مكان فى البلاد ، وراحوا يخبئونهم احيانا فى المستودعات وفى الابنية الفارغة ويهربونهم تهريبا •

وعندما ولدت تلك الدولة فى ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٨ كانت لاتزال أضعف وأقل عددا من أن تقوى على الحياة ، فمن الزيادة التى كانت قد طرأت على عدد السكان اليهود عند اعلان التقسيم ، كان اربعة أخماس السكان ـ أو ٣٣٦ر٠٠٠ نسمة تقريبا ـ مهاجرين . كان عدة آلاف منهم لايزالون فى حاجة الى غذاء ، والى كساء . وكان على السلطة أن توجد لهم مواطن يستقرون فيها ، بيوتا يعيشون ضمن جدرانها ، ومزارع ينتجون منها مايقوم بأودهم .

وكانت المشكلة تتمثل فى أن معظم البيوت والمزارع كان يملكها ويحتلها سكان عرب امتلك أجدادهم تلك البيوت والمزارع واحتلوها امتلاكا واحتلالا متواصلين منذ مئات السنين .

وهكذا فان التقسيم الذى أخضعت له أميال فلسطين المربعة البالغة ١٠ر٤٢٩ قد حابى اسرائيل قليلا فأعطاها أكثر من النصف وكان ذلك النصف أيضا هو النصف الافضل . أجل أعطاها ٥ر٥٠٠ ميل مربع من المزارع المستوية الخصبة الحسنة الأرواء نسبيا والممتدة على طول الشاطىء المتوسطى .

وترك هذا التوزيع ٢٨٩ ميلا مربعا لمشروع اقامة سلطة دولية فى القدس ، على حين ترك للعرب ٤ر٥٠٠ ميل مربع من الجبال الصخرية الجرداء بالاضافة الى الكثبان الجافة المجاورة التى لاتكاد تصلح لرعى الماعز .

وسبقت التقسيم ورافقته حرب عنيفة بين العرب والاسرائيليين ، لقد رفض العرب الحانقون أن يتخلوا عن مزارعهم الخاصة الطيبة ، وقدرت لجنة التوفيق الخاصة بفلسطين أن ثمانين بالمائة من الاراضى فى المناطق التى يحتلها الاسرائيليون كانت ملكا لمواطنين من العرب

خطط اسرائيل التوسعية

ولكن الاسرائيليين كان عليهم أن يستولوا عليها لمصلحة مهاجريهم ولم تكن الحرب النظامية المشروعة هى أكثر الطرق فعالية لاخلاء تلك المنطقة من سكانها المدنيين كانت أكثر الطرق فعالية هيأولئك السكان المدنيين وهكذا ، فلكى تخرج العرب من ديارهم وتكفل مكانا لوافديها الجدد ، شنت اسرائيل حملة تهديد مدنى ضد العرب المقيمين بالجانب الاسرائيلى من خط التقسيم • لقد طردوا العرب من منازلهم واستولوا على مزارعهم • ومن ذلك الحين وهم يرفضون اعادتهم الى تلك المزارع أو التعويض عليهم •

ولكن اسرائيل لم تقف عند ذلك الحد • فبعد أن طردت السكان العرب من المناطق المخصصة لها بموجب مشروع التقسيم ، اجتازت اسرائيل خط التقسيم لتدفعحدودها الىالامام ولتكسب أراضياضافية فوق التى خصصت لها • ومن أشهر الامثلة على هذا التوسعالاندفاعى الهجوم الذى شن عبر الخط ، على قرية دير ياسين فى ٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، قبل اعلان استقلال اسرائيل الفعلى بأكثر من شهر

كانت الحرب قد أعلنت ، وكانت قد شنت فى ضراوة بالغة من كلا الجانبين : أولا على شكل اضطرابات محلية تلقائية ، ثم على شكل هجمات مدبرة بالقنابل والقنابل اليدويةعلى سياراتالنقل ،وسيارات الجيب ، والعربات المصفحة ، والقطر الحديدية الناقلة للجنودوالمؤن والمتفجرات ، واخير على شكل معارك حقيقية فى الميدان •

ولكن الهجوم على دير ياسين وقع خارج نطاق الحرب ، ذلك أندير ياسين لم تكن هدفا عسكريا • كانت قرية مدنية تقع بعيدا وراء الخطوط العربية ، وكان الهجوم على غرار الهجمات التى كان يشنها هتلر عند بدء الحرب العالمية الثانية ، حين طرد ملايين من المدنيين

من ديارهم فغصت بهم طرق فرنسا حتى الاختناق • أجل كان ذلك الهجوم على غرار تلك الهجمات الهتلرية ، وكان يقوم به خبراء بهذا النوع من الحرب • وفي دير ياسين أيضا تقلمت القوات الاسرائيلية وأطبقت على القرية العربية ، وقتلت كل من وقع نظرها عليه من المدنيين ، حتى النساء والاطفال •

هذه المذبحة الخارجة خروجا كليا على قواعد الحرب النظامية • بل والتي لاتتفق مع آداب حرب العصابات نفسها ، كانت جريمة ضد المجتمع لاتقل وضوحا وصراحة عن قتل امرىء آمن برىء بيد امرىء مجرم آثم •

عام ١٩٤٨ بداية المأساة

« اللاجئون الفلسطينيون »

وما ان أشرفت سنة ١٩٤٨ على الانتهاء حتى كانت حملة اسرائيل الرامية الى اخراج العرب من ديارهم قد نجحت نجاحا كبيرا ، حتى لقد فرت جموع اللاجئين العرب من بيوتهم الواقعة على الجانب الاسرائيلي من خط التقسيم ، فهاموا على وجوههم - في حال من الفقر المدقع الى أبعد الحدود - ضمن الجانب العربي من الخط منتظرين انتهاء الاعمال العدوانية ، وتوقيع هدنة تمكنهم من العودة ، ولو في شيء من الهلع والاضطراب ، الى بيوتهم وممتلكاتهم •

ولكنهم لم يرجعوا قط الى تلك البيوت ، أجل ، انهم لم يرجعوا قط فعلى الرغم من الاوامر المتكررة الصادرة عن هيئة الامم المتحدة رفضت اسرائيل رفضا كاملا ، أن تعيدهم الى ديارهم •

دولية فلسطين خرافة

ان فكرة انشاء حكومة دولية في القدس لم تخرج قط الى حيز

التنفيذ ، وهكذا توزعت مساحة فلسطين الكاملة البالغة ٤٢٩ر١٠ ميلا مربعا ، في جو من البغض والكراهية • بين العرب والاسرائيليين

واقترنت اندفاعات اسرائيل عبر خط التقسيم بالنجاح •

واستمر هذا النجاح يرافق تلك الاندفاعات •

فعلى الرغم من وقف الاعمال الحربية اجتازت اسرائيل الخط في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤٨ بعد أن تم الاتفاق على وقف اطلاق النار ، واستولت على بئر السبع • ورفضت بكل بساطة التخلي عنها

وحتى بعد توقيع الهدنة واصلت اسرائيل توسعها في نجاح الى حد أن مساحة الاراضي التي تسيطر عليها اسرائيل بلغت ١٠٠ر٧ميل مربع ، وهذا يعني أن اسرائيل استولت على ٦٠٠ر١ ميل مربع من الاراضي أكثر من المقدار المخصص لها بموجب مشروع التقسيم •

وبعملية طرح بسيطة ندرك أن هذا العمل قد خفض الاراضي الباقية في أيدي العرب الى ٣٢٩ر٣ ميلا مربعا ، أي الى أقل من نصف الاراضي الخاضعة لسيطرة اسرائيل •

وكان ثمة سكان عرب مستقرون يعيشون في هذه المساحة البالغة ٣٢٩ر ٣ميلا مربعا • والى هذه الرقعة المحدودة تدفقت حشود العرب اللاجئين • وقد بلغ عددهم الان مئات الالوف • لقد اغرقوا فلسطين العربية بجموعهم المعدمة ، الجائعة• اغراقا بعيدا جدا بحيث أصبحت كل محاولة في سبيل الاعاشة والاسكان ضربا من المستحيل •

وكان اللاجئون يهرعون كل يوم الى مكاتب الحكومة يلحون في طلب السماح لهم بالعودة الى بيوتهم • وحين عجزت الامم المتحدة عن اقناع اسرائيل بالموافقة على عودة اللاجئين العرب بدأ أفراد من العرب ـ ومعظمهم عزل من السلاح ، كما تظهر التقارير الرسمية ـ نقول بدأ هؤلاء الافراد يعبرون خط الهدنة ، خفية وعلى مسئوليتهم الخاصة

محاولين عادة أن يبحثوا عن شيء كانوا قد خلفوه وراءهم وأمسوا فى حاجة اليه • » ان كثيرا من العرب قتلوا داخل اسرائيل وهم يحاولون استرجاع أشياء معينة من منازلهم السابقة» •

وكان كل اجتياز يقوم به فرد أو أفراد عرب لخط الهدنة ، مهما كان خاليا من الاذى ، يعتبر من وجهة النظر الفنية خرقا لاتفاقية الهدنة ، فكانت السلطات الاسرائيلية تشكوه بهذا الوصف الى لجنة الهدنة الدولية ، لتعود هذه اللجنة بدورها فتسجله كخرق للاتفاقية ونقطة سوداء ضد الاردن العربى •

ولكن هل كانت هذه الاعمال تمثل السياسة الاردنية ، على العكس من ذلك تماما • لقد كانت الحكومة الاردنية تقوم بمحاولات يائسة لوضع حد لهذا « الخرق » لاتفاقية الهدنة الذى كان يقوم به بعض مواطنيها العرب ولسبب وجيه • فقد كان الاردن يدرك أحسن الادراك أن جيشه لايزيد عدده على ٢٠٫٠٠٠ رجل ، مقابل جيش اسرائيل البالغ عدد أفراده ٢٥٠٫٠٠٠ رجل ، لقد كان التزام الطريق القويم شيئا يلائم الحكومة الاردنية ، ولقد التزمت تلك الحكومة هذه الطريق

حملة الحشد والتجميع

وكانت اسرائيل تسيطر • بعد أن ضمت اليها ١٦٠٠ ميل مربع من الاراضى الجديدة • على مقدار كبير من المساحة الفائضة ، وبعد أن آوت مهاجريها اليهود فى الممتلكات العربية القائمة فى البقاع المخصصة لها فى الاصل وجدت اسرائيل أن لديها أميالا فارغة على طول حدودها الجديدة المتقدمة الى أمام • واحتاجت فى الحال الى مستعمرين جدد ليملأوا هذه المساحة ويحموها ، خشية أن يتسلل اللاجئون العرب الى بيوتهم • ويعاودوا احتلالها ، ويصبحوا مصدر ضعف على طول الحدود •

وهكذا بدأت حملة هائلة دعيت حملة (الحشد والتجميع» • لقد جمعت الحكومة الاسرائيلية اليهود من أطراف الارض كلها ونقلتهم بالمجان الى اسرائيل ، لا ليملأوا المساحات الفارغة على الحدود فحسب • ولكن لتكفل أصواتا تؤيدها فى الانتخابات ، وأيديا للعمل المدنى ، وقوة بشرية لتدعيم الجيش •

وفى نيسان (ابريل) ١٩٥١ كانت اسرائيل قد استقبلت ٥٥٩ر٦١٦ مهاجرا • لقد ظلوا يفدون فى اعداد كبيرة ، حتى لقد زاد عدد السكان اليهود فى نهاية تلك السنة فبلغ ٠٠٠ر٢٣٠ر١ نسمة •

وحتى ذلك التاريخ ، كانت مساحة اسرائيل قد اتسعت نتيجة للاندفاعات الغليظة ، البالغة القسوة • والمتواصلة عبر الحدود فبلغت ٨٠٠ر٧ ميل مربع • أى بكسب يبلغ ٧٠٠ ميل مربع • ولكن عدد سكانها كان منتظرا أن يصل الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ نسمة فى عام ١٩٥٣

وهذا الاقتطاع المستمر من جسم فلسطين العربية لم يترك منها غير ٢٦٢٩ ميلا مربعا كان ينبغى أن تضم السكان العرب المستقرين فيها واللاجئين الطارئين عليها ، لقد أخرجت جماعات من العرب اضافية من ديارها ، وما ان دخلت سنة ١٩٥٣ حتى كان عدد هؤلاء اللاجئين قد بلغ نحوا من مليون كامل • (التقويم وكتاب الحقائق العالمى لعام ١٩٥٤ • ص ٣٥٩) •

ان خطوة اسرائيل الاولى — أعنى الاستقدام غير الشرعى لعدد مفرط من المهاجرين يوم كانت لاتزال خاضعة للانتداب البريطانى ، قد استتبعت الخطوة التالية : تأمين مساحة اضافية لاسكان المهاجرين ثم استقدام مهاجرين جدد لملء المساحات الاضافية ، ثم البحث عن مساحات جديدة لايواء المهاجرين الفائضين •

ليس هذا فحسب ، بل ان سياسة « الحشد والتجميع» قد أحدثت

كذلك طوفانا بشريا تدفق الى اسرائيل كتدفق الامواج الكبيرة المحطمة القادمة من البحر الابيض المتوسط مع عاصفة من عواصف الشتاء ، كان لابد من البحث عن متسع ، وغذاء ، وبيوت ٠

ان الكسب الاقليمى الذى حققته اسرائيل خلال ثلاث سنوات ، والبالغ ٧٠٠ ميل مربع ٠ لم يكن كافيا ٠ ومن هنا كان على السلطات الاسرائيلية أن تضع مشروعا بعيد المدى للعناية بهؤلاء الوافدين الجدد ٠ وان تنفذه ، وهذا هو الذى حدث ٠

السياسة التوسعية العدوانية لاسرائيل من ٥٣ــ٥٥

فخلال مدة استغرقت سنتين ـ من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٥٥ ٠٠ وكان المفروض أن تكون الهدنة نافذة) شنت الحكومة الاسرائيلية سلسلة من الهجمات النظامية على القرى العربية ٠ واذا كانت تلك الحكومة فى حاجة الى ذريعة تبرر بها هذه الهجمات فقد كان عبور اللاجئين العرب لخطوط الهدنة يزودها بتلك الذريعة ٠ وما أن بدأت اسرائيل تنفيذ هذه السياسة حتى حدثت ، على نحو آلى ، سلسلة من الحوادث أدت الى هجمات اسرائيلية أخرى تعاقبت تعاقبا لانهاية له ، وكانت هذه الرواية تمثل على هذا النحو ٠

بعد أن تشن اسرائيل هجومها وتطرد العرب من قراهم كانت تسارع الى انشاء مستعمرة اسرائيلية هناك ٠ وكثيرا ماكانت تفعل ذلك قبل أن يخمد غبار المعركة ٠ أما اذا ظل ذلك الموقع تحت رقابة ممثلى الامم المتحدة فكانت المستعمرة تقام فوق أرض أخرى مجاورة كان العرب المروعون قد فروا منها أيضا ٠

ولكن العرب الذين وفقوا الى الهرب بارواحهم ٠ كانوا يتربصون، عادة ٠ فى مواطن غير بعيدة جدا عن البيوت التى غادروها ، وكانت اسرائيل تعرف ذلك ٠ وكانت اسرائيل تعرف أيضا أن العرب قد

فروا صفر الايدى • ونصف عراة فى كثير من الاحيان باعتبار انهم هبوا من نومهم واثبين واندفعوا على نحو أعمى فى دياجير الظلام ، فهم فى أتعس حالات الفقر والاعدام • وطبيعى أن يحاول لاجىء من اللاجئين التسلل الى بيته الذى كان يملك ليرى ماذا كانت العودة مأمونة ، فاذا لم تكن فلكى يسترجع بعض أمتعته ، حذاء زوجته أو سترة طفلة • وكان ،نرجل مراقبا من قبل الحرس الاسرائيلى المقام لهذا الغرض • فاذا مافاجاوه ـ وهو ماكان يقع فى معظم الاحوال ـ واذا ماقاتل محاولا النجاة بروحه ـ كما كان يقع عادة ايضا ـ فعندئذ كانت اسرائيل تجد ذريعتها الجديدة • كانت اسرائيل تسارع الى الزعم بان العرب قد «شنوا عدوانا على مستعمرة يهودية» وتسارع الى شن «هجوم ثارى» • او «هجوم تاديبى» ، وبذلك توسع رقعتها الاقليمية وتدفع حدودها الى الامام ، ومن وجهة النظر الاسرائيلية كان هذا الاسلوب أسلوبا صاعقا حاسما • فكانت تلجأ اليه المرة تلو المرة •

أما هذه الحقيقة : وهى أن المستعمرة الاسرائيلية الجديدة كانت عمليا داخل خط الهدنة ، وانها قد شيدت فوق أرض عربية • أما هذه الحقيقة فكانت تغفل اغفالا كاملا • كان لايشار اليها البتة •وهى لاتزال الى اليوم مجهولة عند الراى العام الامريكى •

وفى ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٣ قامت فرقة من الجيش الاسرائيلى النظامى مؤلفة من ستمائة رجل ومزودة بالمدفعية والبنادق ومدافع ستن ، والقنابل اليدوية ، قامت هذه الفرقة بهجوم ليلى على قرية قبية العربية الواقعة على بعد ميل ونصف ميل داخل المنطقة العربية ، لقد قتل أفراد هذه الفرقة كل رجل وكل امرأة ، وكل طفل استطاعوا أن يعثروا عليه • بل ان المذبحة المخيفة شملت حتى الحيوانات • لقد نسفوا البيوت ، ونسفوا المدرسة والكنيسة •

وبعد ستة أشهر في ٢٨ آذار (مارس) ١٩٥٤ شنت القوات الاسرائيلية النظامية بأسلحتها الثقيلة هجوما على قرية نحالين العربية .

وبعد ستة أشهر أخرى . في ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٥٤ شنت اسرائيل هجوما أضخم . لقد هاجم ثمانمائة من الجنود الاسرائيليين ثلاث قرى عربية عبر خط الهدنة شمالي غربي القدس .

كانت مساحة اسرائيل قد زادت الان فبلغت ٨٠٤٨ ميلا مربعا، مما لم يبق لعرب فلسطين غير ٢٣٨١ ميلا مربعا .

وبينما كان مشروع التقسيم قد منح العرب واليهود مساحات متساوية نسبيا ، تجد اسرائيل تحتل الان أكثر من ثلاثة أضعاف المساحة التي يحتلها عرب فلسطين .

ماالذي فعلته الحكومات العربية لتحمي نفسها من هذا العدوان ؟ ومن ذلك الاستيلاء الجشع على أرض فلسطين ؟ قد يكون الجواب من النوع الذي لايصدق ، ولكن الواقع أن الحكومات العربية لم تعمل شيئا . وهذا أمر من اليسير تفسيره . فعلى الرغم من أن اسرائيل يحيط بها أربعة بلدان عربية: لبنان من الشمال، وسورية من الشمال الشرقي ، والاردن من الشرق ، ومصر من الجنوب ، فان اسرائيل هذه لم تكن قد اجتازت ، قبل عام ١٩٥٥ غير خط حدود واحد .. وكان ذلك هو الخط الاردني لان اسرائيل كانت آمنة ، كما رأينا عند ذلك الخط .

ولكن فلنتابع .. فبعد ستة أشهر أيضا . في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥ ، اجتاز مائتا جندي اسرائيلي نظامي الخطوط المصرية وهاجموا منطقة غزة .

وكان ذلك شيئا جديدا . كان ذلك أول غزو تقوم به اسرائيل للاراضي المصرية . وترك ذلك في الحال أثرا مختلفا مالبث أن ظهر

للعيان • ذلك ان مصر كانت بلدا يعتقد بأن له الحق الكامل في الدفاع عن نفسه • وبدأت مصر تشتري السلاح •

ومع ذلك ، فبعد ستة أشهر أخرى ، في ٢٢ آب (اغسطس) ١٩٥٥ شنت فرقة كاملة من الجيش الاسرائيلي هجوما على خان يونس ، أي على الحدود المصرية أيضا في شبه جزيرة سيناء •

ولما انقضى شهر سبتمبر (أيلول) عام ١٩٥٥ أمسى سبب هجمات اسرائيل على الحدود المصرية واضحا • ذلك ان اسرائيل بدأت تستغل بئرا من آبار البترول يقع على بعد ستة أميال من شقة غزة « ان من الاسباب الرئيسية التي جعلت الاسرائيليين يقاتلون ذلك القتال العنيف للاستيلاء على أراضي النقب الجرداء في الحرب الفلسطينية كان يتلخص في أنهم كانوا واثقين من أن في استطاعتهم أن يجدوا البترول هناك •

وفي الوقت نفسه كانت اسرائيل قد حصلت ، في سكينة وكتمان على نفاثات ميستر من فرنسا •

ناصر يقضي على نظرية أحتكار آلسلاح

وكانت مصر ، كما علم بعد تتعاقد مع تشيكوسلوفاكيا على صفقة من الاسلحة الثقيلة والذخائر الحربية •

الاسلحة للعرب ! لقد خلع ذلك مظهرا جديدا كل الجدة على الموقف كله ، كانت الحرب ، الحرب المخربة المميتة • قد أمست امكانيــة حقيقية • مفاجئة ، مروعة •

وبرغم ما انطوت عليه هذه التطورات من عنصري الترويع والادهاش فقد كانت نتيجة منطقية الى أبعد الحدود ، والواقع أن المرء لايدهش فقط للعمى الغريب الذي تكشفت عنه اسرائيل • لقصر نظرها العجيب

الذى جعلها لا ترى غير أهدافها فحسب • بل انه ليدهش للعمى الذى حل بالعالم الغربى أيضا ،ما الذى جعل رجالنا السياسيين لا يدركون أن العرب سوف يحصلون آخر الامر على السلاح من مكان ما جوابا على عدوان اسرائيل اللانهائى ؟ ان المرء ليعجب فى الواقع لتأخر العرب فى اتخاذ هذه الخطوة •

هذه وعود كاذبة

وبهذا التصريح الرسمى ، دعا دافيد بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل الى السلام فى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٥ قائلا : «من دون أيما شروط مسبقة ، تعلن الحكومة الاسرائيلية استعدادها أيضا لعقد صلح دائم وللقيام بتعاون سياسى واقتصادى وثقافى طويل الاجل بينها وبين جيرانها » •

وفى عين اللحظة التى كان بن جوريون يطلق فيها تصريحه هـذا كانت الاستعدادات تتخذ للقيام بهجوم عسكرى اسرائيلى ، ذلك انه بعد أقل من اثنتى عشرة ساعة•فى ليل ٢ـ٣ تشرين الثانى (نوفمبر) هاجمت وحدات من الجيش الاسرائيلى النظامى المواقع المصرية قرب العوجة فى صحراء سيناء •

ولم ينكر الناطقون الرسميون باسـم الحكومة الاسرائيلية انهم ضربوا ضربتهم العسكرية داخل الارض المصرية •

وفى اليوم نفسه ٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٥ تقدم السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة ، داج همرشولد ، بعرض جديد للصلح •

وأجابت الحكومة الاسرائيلية انها تؤيد عروض هيئة الامم الخاصة بالصلح تأييدا كاملا اذا كانت تلك التدابير تؤيد حقوق ومركز اسرائيل

في منطقـــة العوجة المتوترة ، ودعت الولايات المتحدة — فى الوقت نفسه — الى أن تبيع اسرائيل مقاتلات نفاثة وأسلحة حربية أخرى ·

وعلى الرغم من تسلح المصريين · وعلى الرغم من التأييد الكامل الذى وعدت بتقديمه لهيئة الامم المتحدة ، فان اسرائيل لم تغير مسلكهـا ، كما سوف نرى فى الصفحات التالية ، ولكنها على عكس ذلك وسعت برنامج هجماتها الحكومية المنفذة على يد جيشها النظامى ·

ولكن عنصرا مقلقا كان قد برز الان ، وهذا العنصر كان المنطق يقضى أيضا بأن يتوقعه الاسرائيليون والغربيون · ذلك أن الاسرائيليين الذين نشأوا فى الاصل فى فلسطين كانوا يعرفون عادة العرب العريقة التى تقوم على الاخذ بالثأر معرفة جيدة · فبين العرب يعتبر الاخـذ بالثأر واجبا عائليا ينتقم فيه العربى لدم أى امرىء من أفراد قبيلته يقتل ظلما وعدوانا ·

هجمات الفدائيين الفلسطينيين

وفيما كانت سنة ١٩٥٥ تتقدم نحو الخريف بدأت جماعات صغيرة من الغزاة العرب تنقل القتال بعيدا الى داخل اسرائيل ، وكانت هذه الجماعات المعروفة بالفدائيين تتألف من اللاجئين العرب الفلسطينيين فهم بهذا الوصف مغامرون من غير وطن · مغامرون يعرفون اسرائيل شبرا شبرا لانها كانت فى يوم من الايام بلادهم ·

وتعززت حركة اعداد الفدائيين عندما أعلن شيوخ الازهر ، وهى الجامعة القاهرية التى ترقى الى ألف سنة مضت ، الجهاد أو الحرب المقدسة ضد اسرائيل

وهكذا اندفعت جماهير غفيرة من اللاجئين نحو الصحراء وانخرطت فى سلك الفدائيين · ثم ان هؤلاء الفدائيين راحوا يغيرون على اسرائيل انتقاما لانفسهم ، واستطرادا لمعركة يعتبرون انها لم تنته بعد ·

أما الافراد العرب الذين لم تمكنهم أوضاعهم من الالتحاق بجماعات الفدائيين فقد عملوا على مسئوليتهم الخاصة «فكثير من العرب قتلوا داخل اسرائيل فيما هم يحاولون استرجاع بعض الامتعة من بيوتهم السابقة أو بعض الغلال من الاراضي التي كانوا يملكونها في وقت من الاوقات • والتي كانوا يعتقدون أنه لايزال لهم فيها حق شرعي • •» والواقع ان سياسة اسرائيل القائمة على الرد بعنف وقسوة على هذه الغزوات العربية لم تجدها فتيلا •• ذلك ان المتسللين الذين نجـوا بأنفسهم من الموت أو الاعتقال لم يعرف الخوف سبيلا الى قلوبهم - لقد تسلحوا وارتدوا كرة ثانية التماسا للانتقام

وهكذا تجمعت العاصفة بينما كانت الصحف تتوج صفحاتها الاولى بمثل هذه العناوين : «أزمة الشرق الاوسط» و «خطر الحرب» •• وسرعان مادرس مشروع للسلم • لقد طالب هذا المشروع اسرائيل بأن تتخلى عن النقب الذى كانت قد احتلته قبل خمس سنوات ثم رفضت أن تنسحب منه عندما تم الاتفاق على أحكام الهـدنة فى عام ١٩٤٩ ، ولكن اسرائيل أصرت هذه المرة أيضا على رفضها التخلى عن شبر واحد من تلك البقعة ، ولقد تحدث مراسل عائد من تلك البلاد عن الاستعدادات الخفية التى تقوم بها اسرائيل لعمل من أعمـــال العنف • بما فى ذلك التعبئة الجزئية ، حتى قبل الهجوم على العوجة

ولكن فلنرجع الان الى سرد لائحة الحوادث التى أخذت منذ هـذه اللحظة فى التسارع والتعجيل •

سوريا بعد مصر

فبعد ستة أسابيع من الهجوم على العوجة ليس غير ، أى فى ١١-١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ هاجم ثلاثمائة جندى اسرائيلى مسلح ثلاث قرى سورية على الشاطىء الشمالى الشرقى من بحيرة الحولة ،

وسقط فى هذه الحملة ستة وخمسون قتيلا ســـوريا ، واعترفت الحكومة الاسرائيلية بأنها هى التى أصدرت الامر بشن ذلك الهجوم.

وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٦ أدان مجلس الامن بالاجماع اسرائيل بالاعتداء على سورية ، وكانت ألفاظ الـ «الشنيع ، الشائن الصادم ، الفاضح» هي بعض الصفات التى استعملها الاعضاء عنـــد مناقشتهم لذلك الهجوم وأعلن هنرى كابوت لودج الصغير ، مندوب الولايات المتحدة فى الامم المتحدة . انه عمل لايتنـــاسب أبدا مع الاستفزاز الداعى اليه بحيث لايمكن أن يوصف . فى دقة ، بانهغارة انتقامية ، وطالبت سوريا بتطبيق العقوبات على اسرائيل ، وبطردها من هيئة الامم المتحدة .

وحين انتهى موسم الزرع فى ربيع ١٩٥٦فى اسرائيل ماالذى كان على الجيش الاسرائيلى أن يفعله لكى يشغل نفسه على نحو مثمر ؟.. اليك الجواب :

فتح الاسرائيليون النار على قطاع غزة من المدافع ومن مدافع مورتر ذات الـ ١٢٠ مم ، فقتلوا أربعة جنود مصريين وخمسة وخمســـين مدنيا ، وجرحوا نحوا من مائة آخـــرين . ان بعض القنابل سقطت على مستشفى حاشد باللاجئين .. وكان هذا رابع حادث منحوادث العدوان العسكرى المتعمد يقترفه الاسرائيليون ضد مصر فى الاشهر السبعة الاخيرة .

وهرع سكرتير الامم المتحدة ، داج همرشولد الى الشرق الاوسط وانتزع تأكيدات باقرار السلم من الفريقين المتخاصمين ، وأعلنوزير خارجية اسرائيل ، موشى ، قائلا : ان اسرائيل لن تتورط فى أية أزمة كبرى .

والواقع أن اسرائيل لم تتورط فى مثل هذه الازمة طوال أشهر الصيف • ذلك أنها كانت تستعد لاعمال أعظم • وطبعا كان لابد من اتمام أعمال الحصاد •

ناصر يؤمم القناة

وفى آب (أغسطس) ، أمم ، جمال عبد الناصر ، قناة السويس التى تقع كلها داخل الارض المصرية ، مثيرا بذلك بريطانيا وفرنسا وهما المالكتان الرئيسيتان لاسهم القناة • ان كل دولة غاضبة على العرب كانت حليفا طبيعيا لاسرائيل • وهنا كانت دولتان غاضبتان

العدوان الثلاثى سياسة عدوانية مبيتة

وخلال أيلول ـ تشرين الاول (سبتمبر ـ أكتوبر) قامت اسرائيل بعمليـــة تغطية ـ هدفت من ورائهـا الى تحـويل الانظـــار عن استعداداتها للقيام بهجوم أعظم • فشنت أربع غارات « انتقامية عبر الحدود • وانما وقعت أكبر غارة من هذه الغارات المسلحة فى ١٠ تشرين الاول (أكتوبر) فى قبية ، فى المملكة الاردنية ، حيث أحصى مراقبو هيئة الامم ، فى ما بعد ، ٤٨ قتيلا عربيا •

وكانت تعبئة اسرائيل العسكرية قد أمست الآن على نطاق واسع الى درجة لم يعد فى الامكان ابقاؤها طى الكتمان . فما كان من الرئيس ايزنهاور الا أن وجـــه تحذيرا قويا الى رئيس وزراء اسرائيـــل ، بن جوريون ، ووعد بتقديم المساعدة الى ضحية العدوان فى الشرق الاوسط كائنا ما كان الضحية •

وجوابا على هذا التحذير أعلن سفير اسرائيل فى الولايات المتحدة ، أبا ايبان ، فى كثير من الوضوح : « ان اسرائيل لن تبدأ أية حرب »

وفي اليوم التالي بالذات أوردت الصحف أنباء عن غزو اسرائيل لشبه جزيرة سيناء المصرية بحجة أنها « حرب وقائية لصد هجوم منتظر تقوم به مصر » ٠٠ لقد بدأ ذلك الغزو ، يوم التاسع والعشرين من تشرين الاول (أكتوبر » ، أى فى نفس اليوم الذى أعلن فيه أبا ايبان أن اسرائيل لن تبدأ أية حرب ٠٠

أجل ، لقد قذفت اسرائيل بقوات تتألف من ٣٠ الف رجل مزودين بالمصفحات ، وسيارآت الجيب ، يحميهم غطاء من قاذفات ميستير . فعبرت هذه القوات شبه جزيرة سيناء كلها ، واتخذت سبيلها الى قناة السويس مباشرة ٠ .

انجلترا وفرنسا تدخلان المعركة لمساندة اسرائيل

وفي ٣١ تشرين الاول (أكتوبر) ، عند الفجر ، بدأت الجلترا وفرنسا ، بجيش يبلغ عدد أفراده خمسين ألف رجل (مجلة تايم ، عدد ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٦) نقول بدأت انكلترة وفرنسا بغزو مصر بالطائرات ، والسفن ورجال المظلات ، والقوات البرية التي كانت قد حشدت ، سرا ، ووضعت على قدم الاستعداد في جزيرة قبرص ٠

وفي فترة قصيرة استولت اسرائيل على شقة غزة ، وعلى شبه جزيرة سيناء بكاملها ٠ وكما كانت عادتها بعد كل هجوم صاعق كانت تقوم به على ناحية من نواحي خط الهدنة واستيلائها على كسب اقليمي ما ، وافقت اسرائيل على طلب الامم المتحدة القاضي بوقف اطلاق النار ، متجنبة بذلك انتقام المصريين ٠٠٠

وبعد أن أتمت بريطانيا وفرنسا تحطيمهما للمطارات المصرية واستيلاءهما على الجزء الشمالي من قناة السويس ، وافقتا هما أيضا على وقف اطلاق النار ٠

وكان وضع مصر الدال على عدم الاستعداد قد كشف أوضح مايكون الكشف أنها لم تكن تدبر أيما « هجوم وشيك أو منتظر » ضد اسرائيل ، أو أية عدوان مهما يكن ٠

وأعلن رئيس الوزارة الاسرائيلية ، بن جوريون ، أن خطوط الهدنة المرسومة عام ١٩٤٩ قد أمست « ميتة » ٠ وادعى ملكية اسرائيل لكامل شبه جزيرة سيناء البالغة مساحتها الواسعة ٢٣ ألف ميل مربع ، وطلب رئيس الوزارة البريطانية ، ايدن ، لكي لا تتفوق عليه دولة صغيرة مثل اسرائيل ، أن تتراجع مصر مائة ميل عن حدودها المصرية ــ الاسرائيلية ، وأن تترك « حماية » قناة السويس الى بريطانيا وفرنسا ٠ آن الانسجام الكامل بين الحلفاء الثلاثة كان في أوجه ٠

امريكا وروسيا في المعركة

ولكن سرعان ما تلقى ذلك الانسجام ــ في تعاقب سريع ــ ضربتين قاضيتين ــ وكانت الضربة الاولى مروعة حقا : فقد وجهت روسيا أنذارا صريحا الى بريطانيا وفرنسا واسرائيل بضرورة الانسحاب في الحال من مصر والا فانها ، أي روسيا ، سوف « تسمح » لـ ٢٠٠ ألف متطوع روسي بالتوجه لنجدة مصر ٠ (مجلة تايم ، عدد ١٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٥٦) ٠ وجلجلت الصين الحمراء وقرعت الاجراس ٠ مشيرة الى عدد « المتطوعين » الذي سوف « تسمح » بارسالهم فاذا ذلك الرقم يبلغ ٢٥٠ الف متطوع ٠ أما الضربة التالية فعلى الرغم من أنها كانت الطف ، فقد كانت أحفل بالخزي والعار ٠ كان موعد الهجوم قد اختير ، في براعة ، بحيث يقع قبيل انتخابات الرئاسة الامريكية مباشرة ، في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ٠ وكانت نظرية ايدن تذهب الى أن مستر أيزنهاور سوف يلتزم الصمت تجاه عدوان اسرائيل خشيـة أن يخسر أصوات اليهود الأمريكيين في

الانتخابات ، وأنه سوف يواصل التزام الصمت تجـــاه العدوان البريطاني الفرنسي خشية أن يخسر حلفاءه في حلف الاطلسى (الناتو) ٠

ولكن ايدن أخطأ في تقديره هذا ٠ ذلك ان الرئيس ايزنهاور لم يسارع ، في غير ما تردد ، وقبـــل الانتخابات ، الى ادانة اسرائيل فحسب ، بل سارع الى ادانة بريطانيـــا وفرنسا أيضا ٠ وأوضح بما لا يحتمل اللبس أن تزويد الولايات المتحدة لدول حلف الاطلسى بالاسلحة والبترول لم يكن يقصد به المساعدة على العدوان في الشرق الاوسط ٠

وكان ايزنهاور ، صريحا الى أبعد الحـــدود أيضا ، في تحذير روسيا من التدخل ٠

وانما كان ذلك الخوف نفسه من تدخل روسيا يسيطر على تفكير كل من أعضاء الوفود الدولية عندما أصدرت هيئة الامم أوامرها الى المعتدين الثلاثة بالانسحاب من مصر « في الحال » ٠

وهناك عامل ثالث لم يحسب له المتـآمرون حسابا ذلك هو قوة العرب بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر فقد وقفوا جميعا قوة أجبرت ايدن على التخاذل والانسحاب ٠

وحين أصرت الولايات المتحدة في طلبها الى اسرائيل أن تنسحب من سيناء ، وعندما اضطرت اسرائيل آخر الامر ، عـــلى كره منها ، الى القبول بذلك اقترحت جولدا مائير ، وزيرة خارجية اسرائيـــل ، أن تنتزع سيناء من مصر ، وأن تجعل منطقة محايدة ٠

والواقع ان جولدا مائير قد تكشفت في تصريحها ذاك عن واحد من أمرين : أما جهل مدهش للتاريخ ، أو افتراض بارد لجهل الرأى العام للتاريخ ، فمنذ أقدم العصور التاريخية وشبه جزيرة ســيناء تؤلف

جزءا من مصر · فقد كان المصريون يستخرجون النحاس من مناجم سيناء قبل خروج اليهود من مصر · ان وادى العــريش الواقع فى شمالى شرقى سيناء كان خلال التاريخ كله ، ولايزال ، «نهر مصر» · ذلك هو الوضع حتى هذا التاريخ ·

اسرائيل المعتدية دائما

ولكن السبب الاساسى فى الصراع الطاغى على الشرق الاوسط ـ النزاع العربى الاسرائيلى ـ لا يزال مستمرا · ما مظهره الرئيسى ؟ العدوان الاسرائيلى · لقد أصبحنا نعــرف ذلك الآن · فـكما تظهر الارقام ، عملت تلك الدولة الصغيرة عملا موصولا على توسيع رقعتها من الـ ٥٠٠ر٥ ميل مربع المخصصة فى الاصــل لها ، الى ١٠٠ر٧ ميل مربع أولا ، ثم الى ٨٠٠ر٧ ميل مربع ثانيا ، ثم الى ٠٤٨ر٨ ميلا بعد ذلك . وقــد تم بعد ذلك فى فترة قصيرة لا تزيد عــلى ثمانى سنوات · وها هى ذى الآن تغزو دولة مجاورة لكى تنتزع (ولـكى تبذل كل جهد ممكن للاحتفاظ بـ) شبه جزيرة سيناء الواسعــة ، بمساحتها البالغة نحوا من ٢٣ ألف ميل مربع وبامكانياتها المعدنية ، التى لم تحدد بعــد ، وخاصة المواد المنفلقــة مثــل اليورآنيوم والبلوتونيوم وغيرهما ·

كيف تستطيع أية دولة أن تحقق مكاسب اقليمية ان لم تفعل ذلك بالاندفاع عبر الحدود والاستيلاء على مزيد من الارض ؟ ان المرء لايكسب أقاليم ما دام ملتزما الهدوء وراء خط الحدود المرسوم له ···

وليس فى استطاعتنا أن نشك فى أن حـكومة اسرائيل هى التى أصدرت الاوامر بالقيام بأعمال العدوان هذه ، لانه وفقا للتقرير الذى وضعه الجنرال بينيكيه ورفعه فى ٢٩ تشرين الثــانى (نوفمبر) الى مجلس الامن الدولى فان ستة عشر قرارا من القرارات التى أصدرتهــا:

لجنة الهدنة الاردنيـــة الاسرائيلية المشتركة والتى أدانت اسرائيل بالعدوان كانت نتيجة لهجمات **«قامت بها قوات اسرائيل العسكرية»**.

ومجلس الامن الدولى نفسه ، حتى قبل غزو شبه جزيرة سيناء ، كان قد أدان اسرائيـل بالعـدوان أربع مرات ، وذلك فى ١٨ نوار (مايو) وفى ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر) وفى ٢٩ آذار (مارس) وفى ١٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٥٦ .

ان اسرائيل تزعم انها تدافع عن نفسها ، ولكن اذا كان ذلك القتال دفاعا عن النفس فعلا ضد غزاة ما ، أفلا ينشب على الحـدود أو على الحدود أو على الجانب الاسرائيلى من خط الهدنة ؟ لماذا تقع هذه المذابح التى تذهب ضحيتها قرى عربية بكاملها ـ أجل لماذا تقع هذه المذابح دائما وابدا ، عبر الحدود وفى الجانب العربى من خط الهدنة ؟ ..

ما هو موقف العرب تجاه الهجمات الاسرائيلية ؟

والآن ماذا نجد فى الشق الآخر من السجل ؟ ما الذى نقع عليه فى صفحة العرب ؟ هل شنوا فى يوم من الايام هجوما على اسرائيل بناء على أوامر حكوميـــة ؟ هل حاول أيمـــا جيش عربى أن يغزو اسرائيل فى أية مناسبة من المناسبات .. ؟

وقد يبدو الجواب غريبا لا يصدق . ولكنه يتلخص فى كلمة واحدة هى : لا .. والسبب الوحيد الذى يجعل سجل العدوان هذا يبدو « ذا جانب واحد » الى مثل هذا الحد الفظيع هو أنه فعلا ذو جانب واحد .. « فما من دولة عربية دعيت قط الى المثـول أمـام مجلس الامن بتهمة الهجوم بقواتها المســلحة على الاراضى التى تحتلهـــا اسرائيل » .

ولكن المعلومات المستقاة من هيئـــة الامم المتحـدة لا ضرورة لها على الاطلاق ، لان الدليل ، **الدليــل الذى لا يدحض** ، والذى يثبت أى

الفريقين هو المسؤول . انما نجـــده فى الاحصاءات . فالاحصاءات لاتكذب . **وها هو ذا البرهان الواضح : الفرق بين مساحة اسرائيل الاصلية البالغة ٥٠٠ر٥ ميل مربع وفقـــا لما خصص لها بموجب مشروع التقسيم ، وبين الـ ٠٤٨ر٨ ميل مربع التى تحتلها الآن .** بل ان هذه المساحة قد تكون أكبر من ذلك أيضا ، ذلك ان مساحـة اسرائيل ـ وهو أمر غريب الى أبعد الحدود ـ لم ينص عليها فى طبعة عام ١٩٥٦ من « التقويم وكتاب الحقائق العالمى » ..

بن جوريون يعالج البطالة بالحرب

ولكن لعل الوسيلة التى حقق بها هذا الكسب ـ هجـــوم فى الربيع وهجوم فى الخريف ـ هى المظهر الافع والادعى الى الرعب من مظاهر الصورة الفلسطينية كلها . وأى برنامج عجيب هو هــــذا البرنامج الذى يجعل دولة من الدول تبعث بشبابنا لقتل الجيران كل ستة أشهر فى فترة الكساد التى تعقب موسم الزرع فى الشتاء ثم التى تعقب ، من جديد ، موسم الحصـــاد فى الصيف ؟ انه برنامج فظيع كمثل فظاعة موسم نظـــامى من مواسم القنص ، موسم يفتح مرتين فى كل عام على الجنس البشرى !

وان هدف هذا البرنامج ، وهو طرد الملايين من المخلوقات البشرية من ديارها ، ليضاعف من وطأة الطبيعة الكابوسية التى تسم هذه السلسلة العجيبة من الحوادث ، والتى تجعل هذه القصة أكثر غرابة من أى قصة من قصص الرعب كتبها ادجار الن بو ..

ان اسرائيل تحتل الآن معظم فلسطين . ولكن واضعى مشروع التقسيم لم يـكن فى نيتهم ، فى أى وقت من الاوقات ، أن يملكوا اليهود فلسطين بكاملها .. واخراج العرب من ديارهم شىء لم يخطر للامم المتحدة بل لم يخطر ـ والعيـــاذ بالله ـ للشعب الامريكى ،

دافعى الضرائب عندنا ، الذين قدموا الى اسرائيل حتى الســـاعة ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٤ دولار ٠

الدعاية الصهيونية المضللة بامريكا

والآن ما الذى يمكن أن نقوله عن اليهود الامريكيين ؟ هل يعرفون هذا السجل المروع الذى ينتظم المذابح التى قامت بها اسرئيل ؟ أكان هذا هو ما قصدوا اليه (من تأييدهم انشاء دولة اسرائيل)؟ وهنا أيضا ، ينبغى لنا أن نستعيذ بالله !

لا ٠ لقد أفردوا هم أكثر من أى جماعة أميركية أخرى ، كفئة مستقلة ، وأخضعوا لفيض متواصل من المحاضرين الذين وفدوا الى الولايات المتحدة من اسرائيل للقيام بمجرد المهمة الغليظة ليس غير : جمع الاموال والتبرعات ٠ ولكى يؤدوا هذه المهمة توصل أولئك المحاضرون الى ابتداع (تكنيك) هذه طريقتين : كانوا يتكلمون أولا عن المشاريع الانشائية فى اسرائيل ٠ وبعد ذلك كانوا يشيرون الى أن اسرائيل تواجه خطرا مميتا من الخارج ، ويتوسعون فى هذه المنطقة لكى يستثيروا عواطف المستمعين اليهم ومشاعرهم ٠ بمثل هذه الوسائل والاساليب استطاعت اسرائيل أن تحصل من اليهود الامريكيين على هذا المبلغ الذى يوقع الدوار فى الرأس وهو ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٣٢ر١ دولار ٠

الصهيونية تسيطر على اجهزة الدعاية الامريكية

هل يعرف مواطنونا الاميركيون اليهود أنهم انما يمولون فى حمية ونشاط برنامج تقتيل وسفك وسرقة ضخمة ؟

لا أيضـــا ٠ لقد أخفيت عنهم الوقائع الحقيقية ، وأخفيت اخفاء بارعا ، من قبل مصادر أنبائهم الخاصة نفسها ٠ وبدلا من ذلك ، بالاضافة الى الدعاية الصرفة ، فقد ثقفوا بأساليب ماكرة ، ومن

طريق نشر المعلومات المحرفة التى تتخذ مظهر الصدق والوثوق .
وكمثل على ذلك اذكر أن أحد محررى الاعمدة فى احدى صحفنا اقترح مؤخـــرا هذا الاقتراح الذى يبدو ، لاول وهلة ، معقولا وحسنا ، والذى يتلخص بأن تجعل اسرائيل الدفاع عن حدودها المتعرجة أسهل وأيسر وذلك بتقويم هذه الحدود بحيث تجرى فى خط مستقيم على طول نهر الاردن والبحر الميت . فهل كان هذا الصحفى يعرف أن على اسرائيل لكى تقوم بشىء مثل هذا ، أن تثب الى الجانب الاقصى من تلك المنطقة ، وبذلك تضم الى أراضيها فلسطين العربية برمتها أم أنه افترض أن القارىء العادى لن يدرك ذلك ؟
ولكن اليهود الاميركيين قد أشربوا نفس مثل السلام والاخوة التى أشربها سائر الاميركيين . ومهما حاولت تقتيل وذبح أى جزء من أجزاء الجنس البشرى . لا لم يكن ذلك فى نيتهم ، ولم يكن فى نيتنا ، وفى نية الامم المتحدة .

لقد خلقوا دولة اسرائيل لتكون موطنا يستطيع البائسون من الناس أن يجدوا فيه الامن والسلم . ولكن اسرائيل اتخذت بدلا من ذلك ، قاعدة يشن منها اليهود هجمات السلخ والترويع .

وانما تبلغ خيبة الأمل ، عندنا ، غاية الغايات عندما نرى ونسمع سفير اسرائيل فى الولايت المتحدة ، آبا ايبان ، يقف ويعبر عن قبول بلاده لمقترحات اقرار السلم بينما تكون الحكومة الاسرائيلية قد قامت فى تلك اللحظة بالذات ، وعلى نحو مكتوم ، بتعبئـة عامة للقوات العسكرية ، وبينما تكون هذه القوات قد بدأت تستعد لغزو بلاد أخرى . وهذا مماثل لا للاساليب التى اتبعها الشيوعيـون ، ولكن للاسـلوب الذى اتبعه اليابانيون يوم شـنوا هجومهم على بيرل هاربر .

ما السبب الذي يمكن أن يدفع اسرائيل في هذا الاتجاه العجيب ؟

وماذا عن اسرائيل نفسها ؟ ان زعماءها يعلمون انهم يقومون بأعمال العدوان . فكيف يبررون ذلك لانفسهم ؟ وهل عمدوا من طريق الدعاية والتثقيف الى بناء نظرية تبرر أعمالهم هذه أمام عقول أتباعهم ؟ ما الذى يقولونه لهؤلاء الاتباع ؟

هل يقولون لهم ان لاسرائيل حقا سياسيا فى تلك المنطقة بكاملها لانها كانت في يوم من الايام مملكة داود وسليمان ؟

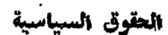
وهل يعمد اليهود الاميريكيون ، لكى يهدئوا شكوكهم وضروب الاسئلة التى تدور فى رؤوسهم ، الى محاولة اقناع أنفسهم بالشيء نفسه ؟

وهل يحاول المسيحيون ، الاميريكيون المترددون أبدا على الكنائس — حين يقرأون أنباء المذابح التى تقترفها اسرائيل وقرارات الاذانة التى تتخذها الامم المتحدة ضـــدها — هل يحاول الاميركيون أن يقفوا فى شيء من الشك والارتياب ويتساءلوا ما اذا كان صحيحا ان لاسرائيل حقا سياسيا ما فى فلسطين كلها ؟

ما الجواب الصحيح ؟ ما العمل الحق الذى يتعين علينا أن نقوم به ؟ والذى يتعين على حكومتنا أن تقوم به ؟ بل والذى يتعين على اليهود الاميركيون ان يفعلوه ؟

اننا لن نستطيع أن نعرف ذلك أبدا الا اذا درسنا ، دراسة نقدية ، مسألة حق اسرائيل السياسى فى فلسطين . نحن نريد جوابا على هذا السؤال : هل لاسرائيل ، بموجب أحكام القانون الدولي ، حق سياسي في أرض فلسطين ؟

٣



الحقوق السياسية

ان الكتاب الذين ألفوا في تاريخ الشرق الاوسط يدعون فلسطين مفرق طرق العالم القديم • والواقع أن هذه ليست صورة مجازية فحسب فقد كانت فلسطين ولا تزال مفرق طرق ومن هنا كان — ولا يزال الى اليوم ، منشأ البلاء •

في تلك الازمان البعيدة ، كانت الصورة المحيطة تتغير كلما سقطت دولة أو دول ونهضت غيرها بدلا منها ، ولكن خـــلال التاريخ القديم كله كانت مصر الفراعنة — مصر الكبيرة الكثيـــفة السكان — تقوم الى الجنوب • وكانت حدود فلسطين الشرقية تتصل بصف من الدول الصغيرة المجاورة — مؤاب ، عمون ، وجلعاد — بينما كانت الصحراء العربية الضخمة القائمة وراءها ملأى بآلاف لا تحصى من رجال القبائل الرحل • وأبعـــد الى الشرق ، وراء الصحراء الكبرى ازدهرت دولتا أشور وبابل الغنيتان ، خلال عصور طويلة ، على ضفاف دجلة والفرات ، وفي بعض الفترات كان الاموريون أقوياء في شمالي فلسطين مباشرة أي في البلاد التي تعرف اليوم باسم سورية • وفي حقبة معينة برزت دولة « ميتاني » الى مقام الصدارة • وطوال عدة قرون كان الحيثيـــون يسيطرون على الاقاليم الغربية في آسيا الصغرى • أما الى الغرب ، فكانت كريت (اقرايطش) بثقافتها الرفيعة الرائعة وعبر مضيق هلليسبونت — المعروف اليـــوم بمضيق الدردنيل — على البر الاوروبي امتدت البلاد التي عرفت فيما بعد ببلاد الاغريق ، بجزرها البحرية المتاخمة ، وسفنها المطوفة في أرجاء البحر الابيض المتوسط والقادرة على غزو فلسطين من تلك الناحية •

وكانت فلسطين - أرض كنعان القديمة - القائمة في الوسط، بين هذه الدول كلها - كانت الرواق ، الممر المنفذ البحري ، مفرق الطرق الذي كانت جميع الدول المجاورة تثب عبره مهاجمة بعضها بعضا ، بل مزيلة بعضها بعضا من الوجود في أحيان كثيرة • وكان في استطاعة أي من الدول - اذا ما استولت على مفرق الطرق - أن تصد سائر الدول عن هذه المنطقة الاستراتيجية الخطيرة •

ومن أجل الاستيلاء على أرض كنعان - مفرق الطرق الرئيسى ذي الاتجاهات الاربعة - قامت الدول المجاورة بغزوها وفتحها - كل دولة بدورها - من الجنوب ، ومن الشرق من الشمال ومن الغرب وهكذا خلقت الدول الاقوى الدول الاضعف في اندفاع موصول • وكانت هذه الموجات تتقدم حينا وتتراجع حينا ، ولكنها كانت تجرى في تتابع غير منقطع منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر • لقد حاولت كل دولة - شأن الدول اليوم - أن تفوز بموطأ قدم ، ثم بالسيطرة الكاملة على فلسطين وحاولت أن تكسب لنفسها حقا سياسيا في تلك الديار ، وأن تجعل هذا الحق سرمديا •

وعلى نحو دائم ، وفي غمرة من الفتوح الاجنبية ، كان سكان أرض كنعان المستقرون - أي الكنعانيون - يحـــاولون أن يقيموا حكومة مستقلة وأن يحتفظوا بحريتهم • ولكن لم ينجحوا في ذلك قط ، كما سوف نري • فقد كانت احدى الدول المجاورة تسيطر عليهم دائما - بسبب أنهم كانوا يعيشون في مفرق طرق - وتخضعهم لسلطانها• وطوال تاريخ تلك البلاد العريق كان الحكم بأيدى الفاتحين الاجانب الطارئين على البلاد من الخارج ••

ومن بين جميع هؤلاء الفاتحين والحكام ذوي السيادة من الذى يستطيع أن يزعم لنفسه أقوى حق سياسى في فلسطين ؟

اننا ، على سبيل الاستهلال ننص هنا على وضع العالم المتمدن:

الحاضر : ان أى نزاع على ملكية ما ، سواء أكانت فردية أم قومية ينبغى أن يسوى لا من طريق استيلاء أحد الفريقين عليها ، بالعنف والقوة ، وانتزاعها من الفرد الآخر أو الدولة الاخرى بمدفع من المدافع، ولكن من طريق الاجراءات القانونية يعنى من طريق الالتجاء الى محكمة قضائية بالنسبة الى الفرد ، ومن طريق الاحتكام الى محكمة العدل الدولية بالنسبة الى الدول على أن تقدم الادلة والبينات بطريقة منظمة ، وعلى أن يخضع المتقاضون ، سواء أكانوا أفرادا أم دولا للحكم الصادر فى القضية .

وهذا الدليل يجب أن يظهر تاريخا كاملا لملكية الشىء المتنازع عليه ، منذ البداءة .

فما هى قصة ملكية فلسطين ؟ ما الذى يفصح عنه التاريخ ؟

اننا نقدم هنا ، فى هذه الصفحات التالية ، سجلا تاريخيا موجزا ولكنه كامل ، لفلسطين منذ أقدم العصور المعروفة حتى الوقت الحاضر .

الانسان النيناندرتالى والهوموسابيان :ـ

اذا رجعنا الى العصور الاولى نجد أن المؤرخين يحدثونا أن الجماجم التاريخية التى وجدت فى الكرمل فى فلسطين تمثل عرقا بشريا مختلطا هو مرحلة وسط بين الانسان النيياندرتالى والانسان المعروف بـ « الهوموسابيان » . وهم يقولون أن من الممكن أن يكون الانسان « الهوموسابنيان » نفسه قد جاء من موطن آخر ، وهكذا استهل دورة الصراع المرير ، دورة الفتوح والفتوح المعاكسة ، التى شهدتها فلسطين حتى قبل أن يبدأ التاريخ ، اذ راح عرق من البشر يغزو عرقا ويخضعه لحكمه ، ويتحد معه .

ويحدثنا علماء الحفريات ان السكان الذين يرقون الى ٥٠٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠ سنة مضت كانوا يعيشون فى الهواء الطلق أثناء الفترات الحارة الجافة ، وفى الكهوف أثناء الفترات الباردة الرطبة حيث وجدت ركازاتهم العضوية وفؤوسهم اليدوية الحجرية ٠

فى هذه المرحلة المتقدمة من التاريخ ، أى نوع من الناس كان هؤلاء القوم البدائيون ؟ كانوا جماعات قصارا لا يزيد طول الواحد منهم على خمسة أقدام ٠ ان هياكلهم العظمية وشكل جماجمهم المتحجرة فى الارض تشير الى أنهم من عرق سامى ـ حامى ، كما ينبئنا الخبراء وهذا يتفق اتفاقا حسنا مع النص التوراتى الذى يقول ان الكنعانيين كانوا أول شعب سكن فلسطين ٠ لقد كان كنعان هو ابن حام ، وكان حام وسام أخوين ٠ وكانت لهما جمجمتان متشابهتان مثل رمانتين فلسطينيتين ٠

الكنعانيون

وهكذا فان هذه البلاد (فلسطين) ، كما يعرفها التاريخ ، كانت آهلة بالكنعانيين ، وكانت تدعى أرض كنعان ٠

وفى استطاعتنا فى الواقع أن نفخر بهؤلاء القوم وبمنشئى الحضارة الآخرين الذين جاوروهم ، اذ أنهم اكتشفوا ـ من غير معرفة سابقة تهديهم سواء السبيل ـ النحاس اللين فى حوالى العام ٤٠٠٠ قبل الميلاد وتعلموا خلال الالف السنة التالية كيف يجمعون ما بين النحاس والصفيح لينتجوا البرونز الجميل ، وهو اكتشاف قد يكون أهم بالنسبة الى العالم ، فى ذلك الوقت ، من انفلاق الذرة بالنسبة الينا اليوم ، ذلك أنه أدخل علم التعدين وأعطى الشعوب البدائية أدوات وأسلحة قاسية ، حادة لا تكاد تبلى ٠

مصر الفرعونية فى فلسطين

والبقـايا الاثرية التى ترقى الى ذلك العهد ، والتى تتخذ شكل بضائع تباع وتشرى ، تثبت أن التجارة كانت ناشطـة بين مصر وبابل عبر مفرق الطرق الكنعانى •

بل أن أهمية مفرق الطرق هذا كانت شيئاً ملحوظا حتى فى عهد سابق • كانت مصر ، مثل المكسيك القائمة الى الجنوب منا ، هى البلد الاقرب ، وهكذا فان الفراعنة الاقوياء المنتسبين الى الاسرتين الاولى والثانية بسطوا سلطانهم حتى لقد شمل أرض كنعان ، التى أصبحت مستعمرة لهم • وانما حدث ذلك حوالى عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، وابتداء من هذا التاريخ نستطيع أن نتخيـل أول حاكم مستعمر وقد وصل الى مفرق الطرق وتولى زمام الامر فيـه ـ انه مصرى نحيل أسمر يرتدى تنورة كتانية بيضاء •

ولكن سير التاريخ شاء أن نسمع أنباء من أرجاء أخرى من المنطقة وفيما كانت السنوات تكر ، اندفع البدو الى الممر الكنعانى،معكرين صفو السلام ومروجين لفكرة الثورة بين أهل البلاد المستقرين فيها• كانت الكتابة قد أخترعت ، وكانت مصر قد شرعت تنقش علـى الكؤوس والتماثيل الصغيرة أسمـاء بعض الثائرين المقبلين فى المستعمرات وذلك فى مجموعة من النقوش دعيت بـ « نصـوص اللعن والكراهية » • وقد اشتملت هذه الاسماء على بعض من أبناء كنعان •

والمؤرخون يعتقدون أن القـرن العشرين أو القرن التاسع عشر قبل الميلاد يتفق مع العصر البطريركى الوارد ذكره فى التوراة،وأن من الجائز أن يكون الرجل البدوى المسمى أبرام العبرى قد غادر كلدة البابلية ، واندفع نحو أرض كنعان حوالى هذا العهد بالذات •

الهكسوس يحكمون مفترق الطرق

وعلى الرغم من أن مصر ظلت تعتبر أرض كنعان جزءا من امبراطوريتها فان بعض البدو الرحل الوافدين من الشمال ـ والذين يدعون الهكسوس ـ تجاهلوا ذلك واندفعوا نحو الجنوب ليدخلوا أرض كنعان . فحوالى عام ١٧١٠ قبل الميلاد ضربوا الحاكم المصرى المستعمر ضربة قاضية . واذ جاز لنا أن نحكم ، على ضوء تمثال موجود فى المتحف البريطانى ، فعندئذ نستطيع أن نتخيل الحاكم الهكسوسى الذى تولى زمام الامر فى مفرق الطرق الكنعانى (فلسطين) رجلا طويل الانف ، رقيق الشفتين ، كبير الاذنين .

واستمرت امبراطورية الهكسوس فى أرض كنعان من حوالى عام ١٧١٠ قبل الميلاد الى عام ١٤٨٠ قبل الميلاد ، وتركت آلافا من الاختام المنقوشة فى كل مكان .

الفراعنة بعد الهكسوس

وفى عام ١٤٨٠ قبل الميلاد أقبل المصريون السمر ، من الجنوب فطردوا الهكسوس من أرض كنعان . وبسطوا سلطانهم من جديد على مفرق الطرق العالمى هذا ، فدامت سيطرتهم عليه هذه المرة مئة وثلاثين عاما .

ثم أن فرعون مصر اخناتون فقد هو نفسه الامبراطورية . لقد آمن بآله واحد ليس غير ، لا بالآلهة المصرية المتعددة وهو ايمان كان فى نظر المصريين ضربا من الهرطقة . وتفسخت الامبراطورية وتجزأت . وفى غمرة من هذه الفوضى العامة استطاعت مستعمرات مصر الاجنبية ، وفى جملتها أرض كنعان ، أن تنتزع حريتها ، وتاريخ هذا الحدث هو السنة ١٣٥٠ قبل الميلاد .

ولكن ملوك المدن الكنعانيين ، الذين كان كل منهم أضعف من أن يحتفظ باستقلاله وحريته ، كانوا فريسة سهلة للغزاة التالين ، القادمين من ناحية أخرى ٠

الحيثيون فى فلسطين

وكان من اليسير على المرء أن يحزر أى الشعوب سوف يهاجم فلسطين الآن ٠ كان هو ذلك الشعب الذى يملك أحدث سلاح من أسلحة الحرب ، السلاح الفتاك ذى الكلمة الاخيرة الحاسمة والذى كان يمثل آخر اكتشاف جدير بأن يفرض أثره على حقب التاريخ التالية كلها حتى عصر الفولاذ الذى لا يعرف الصدأ سبيلا اليه ٠ أنه الحديد ٠ وهناك فى الشمال الغربى ، فى آسيا الصغرى ، كان الحيثيون ذوو الرؤوس المستدقة والاجسام البرميلية يملكون هذا السلاح الخطير ٠ لقد أذابوه فى مناجمهم الجبلية وطرقوه سريا على أساس من معادلات تستطيع أن تمنح قوى سحرية لكل من يملك سيفا أو خنجرا من حديد ٠

وعلى هذا النحو من التسلح انطلق الحيثيون واستولوا على معظم الاراضى التى كان جيرانهم «الميتانيون» يحتلونها ٠ وفى الشرق استولى الاشوريون على البقية الباقية من هذه الاراضى ٠ ومن ذلك الحين زالت دولة الـ « ميتانى » ٠

عندئذ التفت الحيثيون المنتصرون نحو الجنوب واستولوا على سوريا (أرض الامويين) ٠ ثم انهم استولوا بعد ذلك على أرض كنعان ٠ وهكذا أصبح الحاكم المسيطر على مفرق الطرق حيثيا ٠

كانت مصر قد انهارت وتجزأت مؤقتا ، ولكنها ما لبثت أن لمت نفيسها ٠ فحوالى عام ١٢٩٠ قبل الميلاد (تاريخ آلبرايت) تقدم أشهر

فراعنتها ـ رمسيس الكبير ـ من الجنوب لينازل الحيثيين فى معركة جبارة وقعت عند قادش ، ووفق آلى استرجاع الجزء الجنوبى من المجاز الكنعانى • وكان هذا الانتصار محدودا ، ذلك لان الحيثيين ذوى القبضات المزودة بالحديد كانوا لا يزالون يحتلون آمور •

عندئذ بدأ التاريخ يستجمع قواه للقيام بجهد رفيع سام ، فاذا به يتمخض عن الاحداث التى قلهر لها بعد أن تغير وجه العالم القديم كله المحيط بالبحر الابيض المتوسط • ان الرجال المقاتلين والدول المقاتلة لم يكونوا راغبين فى الحديد السحرى فقط ، بل كانوا راغبين فى الفتح : كانوا يريدون الارض ، والثروة ، والطرق التجارية • واندفعوا مكتسحين •

مفترق الطرق محط اطماع الدول القوية فى المنطقة

وعندما بدأت حركات الشعوب الاكثر بعدا تؤثر فى حياة كنعان تضخم نطاق «مفرق الطرق» ومجاله • فابعد آلى الغرب والشمال زحفت شعوب البلقان والبحر الاسود الى بلاد الاغريق حيث ركب المغامرون الآخيون الضخام الشقر متن البحر ، وعبروا الهليسبونت (الدردنيل) وهاجموا الفريجيين فى طروادة • لقد انطلق الملاحون من جميع الجزر الواقعة فى المتوسط الشرقى ، وتسلحوا بمجاذيفهم ، ونشروا أشرعتهم ، فاجتاحت زوارقهم البحرية جميع تلك السواحل حتى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الابيض المتوسط ، ابتغاء الهجوم على مصر •

وعلى البر شرع كل امرىء ينحرك ـ هجرة جماهيرية هائلة على عربات من ذات الدولابين ـ وماج العالم وكانه مد البحر • وفجأة حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، كانت الامبراطورية الحيثية قد ازيلت من الوجود (أما كيف كان ذلك فهذا ما لا نعرفه) ؛ فلم يبق منها

غير بقية فى بلاد آمور . وتقدم المد جنوبا الى تلك الديار أيضا ، فما كان من الاموريين الا أن أعدوا العدة للرحيل، وشرعوا يتراجعون.

وصدت مصر ذلك الغزو ، وردت المغيرين على أعقابهم . ويعتقد أنه فى ذلك الوقت بالذات ، استطاع العبرانيون ، المنحدرون من ابراهام والمستعبدون فى مصر ، من الفرار أثناء الفوضى العامة التى طغت على البلاد ، وولوا هاربين الى صحراء سيناء .

وفيما كان العبرانيون يهيمون على وجوههم باحثين ، ذلك البحث الابدى ، عن المرعى ، تقدموا هم وقطعانهم الى أمام ، وكذلك فعلت القبائل الصحراوية النازلة قبلهم هناك ، مقتربين من مراعى أرض كنعان كلما وجدوا سبيلا الى ذلك .

وكانت مصر قد هزمت « غزاة البحر » أيضا وردتهم على أعقابهم خاسرين . ولكن بعض ممثلى هؤلاء الغـزاة . ـ نعنى الفلسطينيين ـ ارتدوا على طول الساحل الكنعانى فيما كانت مصر تطردهم من الجنوب .

وهكذا شهدت أرض كنعـان استمرار محاولات مصر للابقاء على سيطرتها عليها من تلك الناحية ، (أى من الجنوب) بينما أطبق عليها الاموريون من الشمال ، والقبائل الصحراوية (وفى جملتها العبرانيون) من الشرق ، وغزاة البحر المغيرون من الغرب ـ أجل كانت هذه الشعوب كلها تندفع للاطباق على مفرق الطرق العالمى ذاك . وكثيرا ما كان الكنعانيون يحصرون على هذا النحـــو ، فى الوسط ، فيكادون يعصرون عصرا .

الفلسطينيون يوطدون حكمهم فى مفترق الطرق

من الذى كسب السباق ؟ أولئك الذين اتفق أن كانوا هم الاقرب: المحاربون الفلسطينيون الذين كان شعارهم حلقة صغيرة من ريش،

حلقة شبيهة بالتاج ، والذين أطبقوا على أرض كنعـــان من الغرب مغرقينها اغراقا • والعبرانيون ذوو اللحى ، أو الاسرائيليون ، كما دعوا أنفسهم الآن الذين أطبقوا عليها من الصحراء الشرقية ، من طريق الهجوم المتفرق ، والتسلل •

ويعتقد بعض الثقات من المؤرخين ان الاسرائيليين قاموا بخروجهم من مصر حوالى عام ١٢٢٤ قبل الميلاد • وانهم بعد أن هاموا عـلى وجوههم فى الصحراء طوال أربعين سنة غزوا أرض كنعان حوالى عام ١١٨٤ قبل الميلاد ، فى تلك اللحظة السيكولوجية المناسبة التى كان فيها كل شىء قد تداعى وانهار • وكان ذلك هو ، بالضبط ، التاريخ عينـــه الذى يعتقـد أن طروادة قد سقطت فيه • (وهى مصادفة غريبة قلما يلاحظها المؤرخون •)

ولـكن الفلسطينيين المتوجين بالريش كانوا أقوى من منافسيهم العبرانيين وأشد بأسا ، ذلك أنهم هزموا الاسرائيليين الملتحين ، بل لقد كادوا يفرضون عليهم العبودية •

وترك الفلسطينيون أيضا أثرا باقيا ، هو اسمهم،على مفرق الطرق الدولى • ان ذلك المفرق لم يعد يدعى أرض كنعان ، لقد أمسى يعرف باسم فلسطين• والآن ، وبعد انقضاء ثلاثة آلاف سنة ، وبعـــد تغيرات عدة من الانقياد والسيادة ، لا تزال تلك الديار تعرف عند الجمهور بفلسطين •

وعلى أية حال ، فلا الفلسطينيون ولا الاسرائيليون استطاعوا أن يفرضوا سلطانهم على السكان الوطنيين فى مدنهم المسورة •ومعظم المؤرخين يعتبرون أن مصر قد حكمت أرض كنعان حتى نهاية عهد رمسيس الثالث ، حوالى عام ١١٥٤ قبل الميلاد ، وان الحكم المصرى بعد هذا التاريخ بدا وكأنه أصبح حكما اسميا ليس غير •

ملك داوود بن سليمان

وظلت أرض كنعان موضع شد وجذب من قبل الفريقين اللذين أغارا عليها من خارج ـ الفلسطينيين والاسرائيليين ـ حتى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب • وهذا هو التاريخ الذى يعينونه لاستيلاء الملك الاسرائيلى ، داود ، على بيت المقدس • لقد هزم الفلسطينيين • وفتح أرض كنعان ، وتقدم بالتالى للاستيلاء على الدويلات الصغيرة المجاورة الواقعة الى الشرق من فلسطين (أدوم ، مؤاب ، عمون ، وجلعاد) •

وبلغ حكم داود ، كله اربعين سنة • وحكم ابنه سليمان أربعين سنة،مما جعل عمر مملكة داود وسليمان بطوله ثلاثا وسبعين سنة •

ثم زالت تلك المملكة من الوجود ، فبعد وفاة سليمان ، حوالى عام ٩٢٧ قبل الميلاد ، تفسخت المملكة وانقسمت على نفسها • لقد تحررت الدويلات الصغيرة المجاورة القائمة الى الشرق ، وانقسمت فلسطين نفسها الى بلدين معاد أحدهما للآخر • لقد شكلت قبائل يهوذا وبنيامين مملكة يهوذا فى الجنوب ، أما القبائل العشر الباقية فشكلت مملكة اسرائيل فى الشمال •

الاشوريون ومفترق الطرق

وكان كل من هاتين الدولتين أضعف من أن تقف على قدميها وحدها ، وهنا برزت مصر ، وغزت مملكة يهوذا وخربت هيكل سليمان الجديد فى بيت المقدس • وانتزع « بن حداد » السورى ، من ناحية الشمال ، جزءاً من الاراضى من مملكة اسرائيل وضمه الى ممتلكاته ، ثم أنه عقد حلفا مع مملكة اسرائيل ضد مملكة يهوذا • وفى يأس استنجدت مملكة يهوذا بمملكة اشور التالية ...

ولم يكن الاشوريون الوحشيون ذوو اللحى السوداء فى حاجة الى دعوة أخرى • وهكذا هرعوا من الشمال الشرقي البعيد ، فخربوا اسرائيل بكاملها وفتحوها فى عام ٧٢١ قبل الميلاد ، وحملوا « القبائل العشر » الى بلادهم أسرى • وهكذا زال ذلك القسم من العبرانيين المعروف باسم اسرائيل •

البابليون فى مملكة يهوذا

وحاولت مملكة يهوذا أن تتشبث بالبقاء ، ولكنها كانت صغيرة أكثر مما ينبغى • والواقع أن نبوخذ نصر الكلدانى أقبل من الشرق البعيد ، فغزا مملكة يهوذا ، ودمر — فى عام ٥٨٦ قبل الميلاد — بيت المقدس ، وأسر يهود مملكة يهوذا أيضا ، وترك وراءه حاكما بابليا مولعا بمساهرة النجم لكى يتولى زمام الامر فى مفرق الطرق الدولى •

ولكن البابليين أنفسهم تعرضوا — فى عام ٥٣٨ قبل الميلاد — للغزو اذ زحف الفرس على الامبراطورية البابلية واستولوا عليها • وقد شمل هذا الغزو والاستيلاء فلسطين أيضا •

العرش فى مفترق الطرق

وأجاز الفرس ، المتسامحون ، الرقيقو الدين ، لبعض الاسرى اليهود فى بابل بأن يعودوا الى بيت المقدس ويبنوها من جديد • وجلس الفرس ، الذين كانوا من أصل آرى ، على سجاداتهم العجمية وحكموا مفرق الطرق الدولى الى أن جاء الغازى الجديد ، وكان مجيئه هذه المرة من الغرب •

الاسكندر المقدونى يغزو الشرق

لقد كان ذلك الغازى هو الاسكندر المقدونى الكبير على رأس

جيش كبير من الاغريق أراد أن يفتح به الشرق الاوسط حتى بلاد الفرس ، وفلسطين في جملة ما يطمح اليه ، فاستولى عليها في عام ٣٣٠ قبل الميلاد .

وكان الاغريق أعظم شعوب العالم تقدما ومدنية ، وكانوا مثاليين ومهندسين معماريين ، علماء ورياضيين ، شعراء وفلاسفة . وهكذا لبس اللاعب الرياضي الوسيم الواقف على مفرق الطرق الدولي دثار الجندي الاغريقي ، ولكن لعله كان ينظم الشعر فيما هو يراقب العالم الدائر من حوله .

ومن هؤلاء القادمين الجدد تعلم شباب الشرق الاوسط المتلهفون كيف يفكرون تفكيرا جديدا ، وكيف يدركون أن العالم ملىء بالافكار المذهلة ، وبالتالى كيف ينفلتون من التقاليد البالية - وهو انقلاب أثار نقمة الشيوخ من اليهود .

وكانت الامبراطورية الرومانية ، المؤسسة على ما يعرف اليوم بايطاليا ، قد أمست فى ذلك العهد جبار العالم القديم ، وكانت قد تصدرت الآن للاستيلاء على معظم ذلك العالم . وكان المواطنون الرومان متسلحين بالمعرفة الفنية التى تمكنهم من بناء كل شىء ، وتنظيم كل شىء ، فى أى مكان .

وفى سنة ٦٣ قبل الميلاد ، استولى الجنرال الرومانى بومبيى ، على القدس . وفيما كانت كتيبة رومانية معتمرة بالخوذ تقف على مفرق الطرق الدولي كانت روما تنصب « ملكا دمية » هو هيرودوس ، لكي يحكم فلسطين ، التي أصبحت في الوقت نفسه ولاية يهوذا الرومانية .

وجبى هيرودوس - المكروه - ضرائب اغتصابية ، وفرض العمل بالسخرة ، وراح يقلد روما ويحاكيها فبنى أبنية ضخمة وأجرى

تحسينات عمرانية باهظة النفقات ، فى جملتها انشاء أسوار جديدة لمدينة القدس وبناء هيكل ضخم لليهود فيها · وفى هذا العام قدر ليسوع أن يولد ·

ومن أسف أن الاباطرة الرومان فى هذا العهد بالذات لم يلقوا كبير بال لتقاليد العدالة الرومانية ، والانصاف الرومانى ·· لقد كانوا فى معظمهم طغاة وحشيين ، وكان اثنان منهم مصابين بالجنون الحقيقى ، بينما كان « ملوكهم الدمى » ومندوبوهم فى الولايات والمستعمرات لا يقلون عنهم وحشية وطغيانا فى كثير من الاحيان ·

وكنتيجة لذلك ، خاضت ولايات يهوذا غمار ثورتين مريرتين داميتين ، ولكنهما غير ناجحتين — الاولى فى عام ٧٠ قبل الميلاد ، والثانية فى عام ١٣٥ بعد الميلاد ·

وكان العقاب الاخير الذى أنزله الرومان باليهود انهم دمروا القدس تدميرا كاملا ووزعوا السكان اليهود بكاملهم على الاجزاء النائية من الامبراطورية الرومانية ·

وأعادت روما بناء بيت المقدس وخلعت عليها اسما جديدا هو آليا كابيتوليتا وفى بادىء الامر لم يكن فى ميسور أى يهودى أن يحيا هناك ، بل لم يكن فى مقدور أى يهودى أن يدخل الى المدينة · وهكذا فان صلة اليهود الرسمية بفلسطين انتهت فى عام ١٣٥ بعد الميلاد ولم يعد لها وجود طوال السنوات الالف والثمانمائة التى تلت

ودام الحكم الرومانى فى يهوذا طوال قرون ، أولا من روما نفسها (من ٦٣ قبل الميلاد الى ٣٩٥ بعد الميلاد) ، ثم من القسطنطينية ، أو بيزنطة ، عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية (من ٣٩٥ بعد الميلاد الى ٦١٤ بعد الميلاد) · وظل الرومان هم المسيطرين على مفرق

الطرق الدولى هذا حتى عام ٦١٤ ب٠م عندما هاجم الفرس ، القادمون من الشرق ، بيت المقدس ، واحتلوها ٠ وهذا هو التاريخ الذى يعينه المؤرخون عادة لخضوع يهوذا كلها للسيطرة الفارسية ٠

ولم يدم هذا الفتح الفارسى الا أربع عشرة سنة ، أى حتى عام ٦٢٨ ، عندما اضطر الفرس الى التخلى عن فلسطين لروما ٠

ولكن كلا من الدولتين ، دولة الفرس ودولة الرومان ، ما لبثت أن استشعرت ريحا باردة بعض الشىء تهب عليها من الصحراء العربية الواسعة ٠ لقد حملت سحائب من الغبار من تحت سنابك آلاف الفرسان البداة ، وصوت الزعيم العربى ، محمد ، يعلن فى نبرة دينية : « الله أكبر ٠٠ الله أكبر ! »

فلسطين اسلامية عربية

وفى عام ٦٣٨ بعد الميلاد استطاع أتباع محمد العرب أن يستولوا على كامل الامبراطورية الرومانية فى الشرق الاوسط وفى جملتها فلسطين ٠ ومع الايام بسطوا سلطانهم على جانبى البحر الابيض المتوسط جميعا ، بل لقد اجتازوا مضيق جبل طارق الى أسبانيا ٠

لقد كان الرجل الاسمر الواقف الآن على مفرق الطرق يرتدى عباءة وعقالا ٠

وبالآلاف ، سكن عرب الصحراء فلسطين واستقروا فيها ٠ ولقد وفقوا الى ادخال الكنعانيين (الذين كانوا ، برغم تعاقب الدول عليهم وما طرأ على دمائهم من دم غريب ، ما يزالون يؤلفون العمود الفقرى لسكان فلسطين الريفيين) فى الدين الاسلامى ، وتزاوجوا معهم ٠ ومع الايام أصبحت لغة مفرق الطرق هى اللغة العربية وأصبحت

عاداته هي العادات العربية ٠ ومع الايام أيضا أصبح الفن المعمارى عربيا ، وأصبح السكان أنفسهم ـ جزئيا ـ عربا ٠

ودعا آتباع محمد العرب أنفسهم المسلمين ، ودعوا عالمهم الدينى الاسلام ٠ ومنذ ذلك الحين ، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى (باستثناء فترة الحروب الصليبية القصيرة نسبيا) خضع مفرق الطرق ـ فلسطين ـ للسيادة الاسلامية المبسوطة عليه من هذه الناحية حينا ، ومن تلك الناحة حينا آخر ، تبعا للبلد الذى يعيش فيه الخليفة ، وما اذا كان هذه الخليفة أمويا من أموييى دمشق ، أو عباسيا من عباسيى بغداد ، أو فاطميا من فاطميى القاهرة ٠ وفى بعض الاحيان كان يتولى مقاليد الحكم جنس من الناس من غير الجنس العربى ٠ ولكن هذا الحكم ، أيا كان مصدره وأيا كان الشعب الذى تولى مقاليده ، كان دائما حكما اسلاميا ٠

وحوالى عام ١٠٨٥ جعل ملكشاه فلسطين جزءا من امبراطورية السلاجقة الاتراك التى كانت قد برزت قبل ذلك فى الشمال الشرقى فى ايران ، والعراق ، والاناضول ٠ وكان الاتراك مسلمين ، شأن السكان المقيمين في مفرق الطرق ، وهكذا فان التغير كان مجرد تغير خارجي اشتمل فيه فن العمارة العربى على قباب السلاجقة ذات القرميد ٠

الحملات الصليبية

وفى هذه الاثناء نظم مسيحيو أوروبا جيشا لتحرير الارض المقدسة من السيطرة الاسلامية ٠ ودعيت الحركة الحملة الصليبية ، ودعى المحاربون الصليبيون ٠ وانما أقبل هؤلاء الصليبيون من الغرب ـ عبر البحار ـ واستولوا على القدس فى عام ١٠٩٩ م ٠ والآن أصبح الصيلبى اللابس الدرع والذى كان يشرف على المواصلات

العالمية من مفرق الطرق (فلسطين) أما هولنديا ، أو فرنسيا ، أو انجليزيا ، أو ايطاليا ، أو ألمانيا ٠

ومن طريق الامدادات المتواصلة المتخذة شكل حملات صليبية تالية استطاع الاوروبيون أن يحتفظوا باحتلال محدود ، قلق ، طوال مائتي سنة تقريبا ٠

ظهور صلاح الدين الايوبى

وفى الجزء الاخيرة من هذه الحقبة سطع نجم وجه من أكثر وجوه التاريخ فتنة وسحرا ، هو وجه صلاح الدين القائد الشجاع الشهم للجيوش الاسلامية ، والذى كان قد انحدر من الشمال الشرقي من قلب جبل كردستان ، فأصدر على الصليبيين حكم الاعدام ٠٠ وقد تمثل ذلك فى هزيمتهم في معركة حطين التي نشبت في ٤ تموز (يوليو) عام ١١٨٧ ٠

ولكن الصليبيين لم يقض عليهم نهائيا الا عندما انحدرت جموع التتر المدعوين بالخوارزمية الى مفرق الطرق (فلسطين) قادمين من بحر آرال ، واستولوا على بيت المقدس ، مزهقين آلافا من الارواح ، ثم تبعتهم على الاثر جحافل المغول القادمين من الشرق الابعد بقيادة هولاكو ، حفيد جنكيز خان ، الذى زرع النار والرعب والموت والخراب فى الشرق الاوسط ٠

وهنا وجد المماليك أن من الخير لهم أن يتعاونوا مع الصليبيين من أجل سحق المغول ٠ فأقبلوا من الجنوب ، من القاهرة فى مصر ، وهزموا هؤلاء المغول فى عام ١٢٦٠ م ٠

ولكن المماليك ما لبثوا أن ارتدوا على حلفائهم السابقين ـ الصليبيين ـ وأخيرا تمكنوا ، فى عام ١٢٩١ م من طردهم من

الشرق الاوسط طردا نهائيا ، فانسحبت آخر بقايا الجيوش الصليبية المشتتة الشمل الى أوروبا ٠

وهكذا استولى على الحكم ، الآن ، فى مفرق الطرق (فلسطين) المماليك والمسلمون القادمون من الجنوب (أى من مصر أيضا) ٠

العثمانيون يتولون خلافة المسلمين

وبعد ذلك ، ولكن من الشمال الغربى هذه المرة ، أقبل الفرع العثمانى من الاتراك فهزموا مماليك مصر ، واستولوا ، لا على فلسطين وحدها ، بل على مصر نفسها ، ثم بسطوا سلطانهم على طول جانبى البحر الابيض المتوسط جميعا ، كما قد فعل العرب من قبلهم ٠ وكان ذلك حوالى تلك الفترة التى اكتشف كولومبوس ـ خلالها ـ العالم الجديد (أمريكا) ٠

وتولى سليمان الكبير (القانونى) السلطة على فلسطين ، وأعاد بناء بيت المقدس ، حيث تقوم الاسوار الفخمة التى رفعها الى الآن ٠ وكان الحكم التركى العثمانى ـ من عام ١٥١٧ الى عام ١٩١٨ ـ امتدادا للحكم الاسلامى ، وظلت لغة البلاد هى اللغة العربية ، كما كانت منذ عام ٦٣٨ للميلاد ٠

ولكن الحكم التركى انتهى الى أن يصبح فاسدا معتمدا على الطغيان وكان السكان العرب المحليون فى فلسطين على استعداد للثورة فى عام ١٩١٤ عندما بدأت الحرب العالمية الاولى ٠

وفى الوقت نفسه ، كان عنصر آخر قد أضيف الى صورة فلسطين ٠٠ ان اليهود لم يلعبوا أى دور فى تاريخ فلسطين السياسى منذ تشتيتهم النهائى فى عام ١٣٥ للميلاد ، ويقدر المؤرخون أن عددهم الاقصى في فلسطين كلها كان فى مطلع القرن التاسع عشر أقل من

عشرة آلاف ، وعلى الرغم من ذلك فقـــد نظمت الحركة ، المدعوة بالصهيونية ، فى أوروبا الشرقية ، وهدفها انشاء وطن فى فلسطين للشعب اليهودى • وفى القسم الاخير من القرن نشطت الهجـــرة اليهودية الى فلسطين وأقيمت أكبر مستعمرة من مستعمرات اليهود فى قرية تدعى تل أبيب ، قرب البحر الابيض المتوسط •

الانتداب البريطانى فى فلسطين

وبدأت الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٤ ، وانضمت تركيا - التى كانت تحكم فلسطين - الى جانب المانيا ، ضد بريطانيا وفرنسا وهزمت فى عام ١٩١٨ • وخسر الاتراك فلسطين • لقد انتهى حكمهم هناك ، واستعيض عنه بالانتداب البريطانى ، عام ١٩٢٣ • وهكذا حل محل الرجل ذو الطربوش ، فى الاشراف على مفـرق الطرق ، جندى بريطانى •

وتوقع العرب لجميع بلدان الشرق الاوسط • لبنـــان ، وسوريا والعراق ، والاردن و فلسطين - أن يفوزوا بالاستقلال ، مقـــابل المساعدة التى أسدوها الى بريطانيا خلال الحـــرب • كذلك طالب الصهيونيون أيضا ، مقابل مساعدتهم لبريطانيا ، بدولة مستقلة فى فلسطين •

مأســاة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٨

ولكن اذا كانت فلسطين كلها عربية ، وتتمتع بحكومة مستقلة ، فلن يكون فى الامـــكان تحقيق مطالب اسرائيل • واذا ما أجيبت اسرائيل الى مطالبها لم يكن فى الامكان اجابة مطالب العرب • وهكذا عمدت هيئة الامم المتحدة الى المنشار فقسمت الطفل قسمين • لقد قررت انهاء الانتداب البريطانى ، فى عام ١٩٤٨ ، وقسمت فلسطين

بين الصهيونين العرب • وأعطى الصهيونيين ، الذين كانوا قدتسللوا من الغرب ، النصف الغربى فأطلقوا عليه اسم اسرائيــل ، وألحق النصف الشرقى بدولة الاردن الصغيرة التى أعادت تسمية نفسـها فعرفت بالمملكة الاردنية الهاشمية • وأعلنت الامم المتحـدة القدس منطقة دولية •

وثار عرب فلسطين اذ رأوا نصف بلادهم ينتزع منهم ويعطى الى اسرائيل • وثار الاسرائيليون لانهم لم يفوزوا بالقدس ، التى كانوا يطالبون بها •

واندلعت نار الحرب بين الفريقين • وتقدم الاسرائيليون فاستولوا على أراض فلسطينية آضـــافية ، مخرجين نحوا من مليـون لاجىء فلسطينى من ديارهم ، وحاولوا الاستيلاء على القدس ولكنهم أخفقوا

وأخير استطاعت هيئة الامم المتحدة أن تضع حدا للقتال ،ورسمت خط هدنة على طول جبهة القتال • وهناك تقف القضية الفلسطينية الآن ، وقد خرقت حرمة الخط ، على نحـــو موصول ، فى أزمة أثر أزمة ، وليس يبدو أن السلم ممكن الوقوع فى تلك الديار •

ولتعقيد هذا السجل العجيب بالملكية المركبة ، ولزيادة المشــكلة حدة والحاحا ، فقد أمست فلسطين الآن مفرق طرق دولى الى حـد أعظم مما كانت فى أى وقت مضى ، وذلك بعـــد أن أصبح الشرق الاوسط ملتقى الطرق للمواصلات الجوية المتشابكة فى العالم • ان الطائرات تطير من الدول الغربية فوق البحـر الابيض المتوسط ، فتجد الى جنوب مصر وأفريقيا ، وتجد العراق وايران ، والباكستان والهند الى الشرق ، وتجد تركيا وروسيا الى الشمال • ان هـــذه الدول كلها تنجذب نحو مفرق الطرق الفلسطينى وكلهـــا طامع بالاستيلاء عليه •

ولو أن حربا عالمية جديدة اندلعت اذن لوجـــدنا الدول العظمى تقاتل من أجل هذه البقعة أعنف مما تقاتل من أجل آية بقعة أخرى فى العالم ، فتحاول كل منها لا أن تسبق الاخـــرى ، ولو بخطوة واحدة ، الى مفرق الطرق هذا فحسب ، بل أن تبسط سلطانها عليه

من أجل هذا يتحتم الوصول الى تسوية دائمة تقوم على اتفـــاق الدول العظمى ، بواسطة هيئة الامم المتحدة ، على احترام مفـــرق الطرق ، وعدم انتهاك حرمته .

التاريخ يتكلم :

فلنحاول اذن أن نزن قيمة البيانات التى جمعناها ونقـــرر أى الجانبين يملك الحق ، فعلا ، فى فلسطين .

لان الحق السياسى فى أى اقليم انما تقرره أشياء أساسية منهـــا الاسبقية الى الاحتلال ، وطول مدة الحكم واستمرارها ، وحـــداثة الامتلاك ، والصفة العرفية للسكان الحاليين .

فبعد « دول المدن » الكنعانية الاصلية ، ظلت فلسطين خاضعة خضوعا يكاد يكون متواصلا للغـــزاة الاجانب . ولسوف يكون فى امكاننا أن نفهم حقائق التاريخ فهما أفضل اذا ما حولنا هذه الحقائق الى أرقام .

وهذا ما سوف نفعله فيما يلى :

حكام فلسطين	تاريخ حكمهم قبل الميلاد	مدة الحكم بالسنوات
الكنعانيون	أول المستقرين	
مصر	غير محدد	غير محدد
الهكسوس	١٧١٠ ـ ١٤٨٠	٢٣٠

مصر	١٤٨٠ — ١٣٥٠	١٣٠
الحيثيون	١٣٥٠ — ١٢٩٠	٦٠
مصر	١٢٩٠ — ١١٥٤	١٣٦
حكام محليون (كنعانيون ، فلسطينيون ، ويهود)	١١٥٤ — ١٠٠٠	١٥٤
اليهود (داود سليمان)	١٠٠٠ — ٩٢٧	٧٣
اليهود (اسرائيل ، القبائل العشر) .	٩٢٧ — ٧٢٢	١٠٥
اليهود (يهوذا)	٩٢٧ — ٥٨٦	٣٤١
اليهود (أوسع امتداد لهذه التواريخ)	١٠٠٠ — ٥٨٦	٤١٤
بابل	٥٨٦ — ٥٣٨	٤٨
فارس	٥٣٨ — ٣٣٠	٢٠٨
اليونان	٣٣٠ — ٣٢٣	~~٧~~
المصريون (البطالسة)	٣٢٣ — ٢٠٠	١٢٣
السلوقيون (سورية)	٢٠٠ — ١٤٢	٥٨
اليهود (مكابيون ، جزئيا فقط)	١٤٢ — ٧٠	٧٢
السلوقيون (ترايفون جزئيا فقط)	١٤٢ — ٧٠	٧٢
أرينيا	٧٠ — ٦٣	٧
رومة (الامبراطوريتان الغربية والشرقية)	٦٣ق٠م — ٦١٤ب٠م بعد الميلاد	٦٧٧
فارس	٦١٤ — ٦٢٨	١٤
رومة	٦٢٨ — ٦٣٨	١٠
العرب (مسلمون)	٦٣٨ — ١٠٨٥	٤٤٧
الاتراك (السلاجقة ، مسلمون)	١٠٨٥ — ١٠٩٩	١٤
الصليبيون (جزئيا فقط)	١٠٩٩ — ١٢٩١	١٩٢

السلاجقة والعرب (مسلمون ، جزئيا فقط)	١٠٩٩ - ١٢٩١	١٩٢
مصر (المماليك : مسلمون)	١٢٩١ - ١٥١٧	٢٢٨
الاتراك (العثمانيون : مسلمون)	١٥١٧ - ١٩١٨	٤١٠
بريطانيا	١٩٢٣ - ١٩٤٨	٢٥
اليهود (اسرائيل ، جزئيا ، فى الغرب فقط)	١٩٤٨ - ١٩٥٧	٩
العرب (الاردن جزئيا فى الشرق فقط)	١٩٤٨ - ١٩٥٧	٩

فبعملية اسقاط سريعة ننحى جانبا البائدين الذين لم يخلفوا ورثاء (الهكسوس ، الحيثيين والفلسطينيين والسلوقيين والسلاجقة) - ومن حكموا مدة وجيزة (بابل واليونان والارمن وبريطانيا العظمى) وجزئيا أو مجزءا (الحكم السلوقى - المكابى ، والصليبى - العربى والاسرائيلى الاردنى الحديث) والمحاولات الثانية القصيرة الامد (فارس ورومة) ٠

وبعد ذلك نسقط من لم يكن حكمها أول حكم ولا آخره ، ولم يكن من الطول بحيث تنافس جديا طويلى الاجل : فارس ، ٢٠٨ سنين ٠

وهكذا يبقى لدينا طويلو الاجل ، وقد يكون لبعض منهم أيضا أسبقية الحكم أو التملك والحكم الحديثان ٠ ان اسما واحدا أو اسمين من أسمائهم قد يبعثان فى نفوسنا الدهش ٠

فمصر كانت أول دولة عظمى أجنبية وطدت سيادتها على ملتقى الطرق ؛ فاذا أغفلنا بالكلية فترات احتلالها الاولى الطويلة ولكن

غير المحددة ، كما ذكرها الدكتور آلبرايت ، وأضفنا فقط فترتيها الاوليين اللتين امتدتا ٢٦٦ سنة الى فترتى حكمها الاخيرتين اللتين امتدتا ١٢٣ سنة و ٢٢٦ ، توصلنا الى مجموع يبلغ ٦١٥ سـنة لمصر ٠

ويحسب اليهود عادة طول حكمهم الاول فى فلسطين من شاؤول الى الاسر البابلى ٠ ولكن حكم شاؤول الباكر لم يكن ذا سيادة حقيقية على البـلاد ، التى كانت فى معظمهـا تحت سـيطرة الكنعانيين والفلسطينيين . كما كان ابان السنوات السبع من حـكم داود في حبرون قبل أن هزم الفلسطينيين ، وقهر كنعان ، واستولى عـلى القدس ٠ أما مملكه داود وسليمان الموسعة ، والتى يستند اليهـود الصهيونيون فى مطاليبهم الاقليمية ، فلم تدم الا ٧٣ سنة — أى من سنة ١٠٠٠ ق٠م الى سنة ٩٢٧ ق٠م تقريبا — مما يضعها فى الفئة القصيرة الامد ٠ ومن بعد ذلك لم تنعم اسرائيل ولا يهوذا بالاستقلال الحقيقى ذلك أن كلا منهما كانت « تدفع الجزية » الى دولة عظمى خارجية أو أخرى ، كما أن كلا منهما كانت تدين باستمرار وجودها الى حماية تلك الدولة العظمى ٠ وبعد غزو قبائل اسرائيل العشر على أيدى آشور سنة ٧٢٢ ق٠م٠ كانت مملكة يهوذا تحتل فعلا مساحة من الارض تبلغ ٥٠ ميلا عرض و ٧٥ ميلا طولا ، أى قطعة من الارض أصغر بكثير من تلك التى تحتلها اسرائيل الحديثة الآن ٠ ولكننا اذا سلمنا بأن الممالك اليهودية القديمة كانت مستقلة طيلة حياتها ، من غزو داود لكنعان سنة ١٠٠٠ ق٠م٠ الى محو يهوذا فى سنة ٥٨٦ ق٠م فاننا نتوصل الى حكم يهودى دام ٤١٤ سنة ٠

وقد دام احتلال الرومان ٦٧٧ سنة (من ٦٣ ق٠م الى ٦١٤ ب٠م) فكان بذلك أطول احتلال مستمر من جانب أية دولة عظمى أجنبية ، وكذلك الاكثر انشاء وتعميرا ٠ ومنذ خمس عشرة سنة تقريبـا

طالبت ايطاليا ، وربثة روما ، بصورة جدية بالممتلكات الاستعمارية للامبراطورية الرومانية القديمة ٠

ويميل العرب الى أن يوحدوا ما بين حكمهم الذى امتد ٤٧٧ سنة (٦٣٨ - ١٠٨٥ ب٠م) وبين العهد الاسلامى الذى ساد باستمرار من سنة ٦٣٨ ب٠م الى الوقت الحاضر ، والى أن يذكروا أن حكمهم دام ١٣٠٠ سنة ٠ ولكن فترة الالف والثلاثمائة سنة هذه لم تكن عربية الا فى السنوات الاربعمائة والسبع والسبعين الاولى منها ، فى حين كانت من ثم سلجوقية ومملوكية عثمانية على التـوالى ٠٠ ولكن وضع العرب في فلسطين نسيج وحده ، ذلك أنهم بخلاف جميع الغزاة الاجانب الآخرين ، لم يبقوا فى عزلة عن الاهالى ، بل جعلوهم يعتنقون الاسلام ، وأقاموا بينهم وتزاوجوا معهم ، وكانت النتيجة أن الجميع الآن قد استعربوا تماما بحيث اننا لا نستطيع القول متى انتهى الكنعانيون وبدأ العرب ٠

دعوى باطلة

وتدعى المملكة الاردنية الهاشمية الحاضرة الرغبة باعادة توطيـد الحق فى الحكم الذى بدأه أسلافها العرب فيما مضى ، تماما كما تدعى إسرائيل الحاليـة الرغبة باعادة توطيــد الحق فى الحكم الذى بدأه أسلافها العبرانيون ٠ ولكن كلتيهما تمارسان سيطرة مجزأة عـلى فلسطين ، وان ايا منهما لا يمكن اعتبارها ثابتة مستقرة ، ذلك أنهما كانتا ولا تزالان منذ البداءة اما في حالة حرب أو هدنة بانتظار قرار نهائى ٠ وحتى صدور مثل هذا القرار لا يمكن أن يكون وضع هاتين الدولتين الا مشكوكا فيه ، ولهذا السبب لم نضف اجليهما القصيرين الممتدين الى تسع سنوات الى حكم أسلافهما ، بل وضعناهما تحت الفئة القصيرة الموزعة ٠

أما الاتراك العثمانيون فقد كانوا الدولة الوحيدة الحديثة التي امتد حكمها الى أجل طويل فقد بدأ في سنة ١٥١٧ ودام ٤٠١ سنة أي الى نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٨)

واذا أقمنا حكمنا على أساس السيطرة السياسية الماضية لاسلاف المملكة الاردنية الهاشمية واسرائيل (وهو أساس دعوى الدولتين السياسية) ، فان الحق لا يمكن أن يكون بجانب أى منهما • ان مصر ، الدولة العظمى الفاتحة ، قد سبقت تاريخ كل من العرب واليهود ، وكان حكم روما أطول العهود وتركيا كانت مستولية على البلاد منذ مدة وجيزة ، فاذا كان للغزو والسيطرة أن يضفيا الشرعية على المطاليب ، فعندئذ تكون مطاليب مصر ، روما وتركيا شرعية لو شاءت هذه الدول أن تتقدم بمثل هذه المطاليب (ان الحقيقة التي تكشف عنها هذه الحقائق — أى أن لمصر في الواقع حقا أعظم في فلسطين من حق اسرائيل •)

فعلى أساس هذا السجل التاريخي نرى أنه ليس للاردن ولا لاسرائيل أية ذرة من الحق القانوني في فلسطين ، مما يجعل دعاواهما مضحكة كدعاوى موسوليني منذ خمسة عشر عاما عندما قام يطالب بامبراطورية روما الاستعمارية القديمة !

واذن فان اسرائيل والمملكة الاردنية الهاشمية ، وقد اخفقتا في اقامة الدليل على حقهما بالوراثة ، لتبدوان في وضعهما الحالي الصحيح كدولتين غازيتين • ان اسميهما هما آخر اسمين يضافان الى اللائحة الطويلة بأسماء المعتدين من الخارج ، ذلك انهما ، هما أيضا ، استولتا على فلسطين في اللحظة السيكولوجية لتمزق الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية • ان حقهما الوحيد هو من نوع التملك الزاهن التملك القصير الامد ، المجزأ •

من هو اذن صاحب الحق القانونى فى فلسطين ؟ ..

هناك شعب واحد ، لا يكاد يذكره أحـــد ، مهمل ، يكاد يكون منسيا من الجميع . ولكن هذا الشعب يجب أن يسمى ويذكر ، لأنه اهم من الجميع - ونعنى به شعب فلسطين نفسه : اهالى فلسطين .

احقية شعب فلسطين من الناحية التاريخية

يقول التاريخ ان أهالى فلسطين نشأوا من الكنعانيين الذين كانوا أول من استوطنوا البـلاد . وعندما كان أى من الغـــزاة الفاتحين يأخذون الاسرى فى الازمنة القديمة فانما كانوا يأخذونهم من المدن التى كانوا يحاصرونها ويستولون عليها . انهم لم يكونوا ينفقـون الوقت فى الخروج الى الوديان القصية ويقتنصون الاهالى واحـــدا واحدا . وهكذا فان بوسعنا أن نكون على يقين من أن السكان الذين كانوا يقيمون فى المناطق الريفية والقرى الصغيرة ظلوا هم أنفسهم منذ البداية كما يمكننا أن نكون على ثقة مماثلة من أن الكنعانيين القدامى ظلوا حيث كانوا .

صحيح أنهم تلقوا مزيجا من الدم من كل من الغزاة ، وبخاصة من المصريين ، الذين حكموهم مرات عديدة وفترات طويلة . ولابد من أن يكون الهكسوس والحيثيـــون والعموريون والاشـــوريون والبابليون القدامى ، قد أعطوا نصيبهم من هذا الدم ، كما لابد أن يكون هنـاك ، حتى اليـــوم ، بعض الارث من الفلسطينيين الذين استوطنوا البلاد باعداد كبيرة بحيث أعطوها اسمهم فأصبحت تدعى فلسطين .

وبسبب من أن الاسرائيليين الاقدمين لم يكونوا يقرون الزيجات المختلطة فانهم على الارجح ، لم يسهموا الا قليـــلا . غير أنه كان هنـاك دم فارسى ، ويونانى وروماني ، بغـــير شك ، ودم تركى : سلجوقى وعثمانى .

وتعزى العيون الزرقاء عند شعب فلسطين اليوم الى الصليبيين ٠ والذى لا ريب فيه أن هناك نسبة مئوية من الدم العربى أعلى من النسبة المئوية لأى دم آخر ، ذلك أن العرب تدفقوا على البلاد واستوطنوها ، وتزاوجوا مع سكانها ، وظلوا فيها ٠

ولكن هذه كلها لم تكن الا اضافات : فروع طعمت بهـا الشجرة الام لمزج عصارتها بعصاراتها ٠ وتلك الشجرة الام كانت كنعانية ٠ كان الكنعانيون هم الاولين ٠ وعندما نتحدث عن « الفلسطينيين » أو « العرب » فاننا لا ننسى أصلهم الكنعانى ٠

وهذا من الاهمية بمكان ، ذلك أن حقهم القانونى فى البلاد اليوم ناشىء لا - كما يبدو أن الغرب يعتقدون - من الحكم العربى الذى امتد فترة طويلة ، بل من الحقيقة القائلة بأن الكنعانيين كانوا هم الاولين ، مما يعطيهم الاسبقية ٠ لقد استمرت سلالاتهم فى العيش هناك ، مما يعطيهم الاستمرار ، وهم (باستثناء الثمانمائة ألف لاجىء الذين أخرجوا من ديارهم) لا يزالون يعيشون هناك ، مما يعطيهم التملك الراهن ٠ وهكذا نرى أن لهم ، على أساس احصائى صرف ، حقا قانونيا ثابتا فى بلادهم ٠

ميثاق الاطلسى وشعب فلسطين

حتى ولو سلمنا بأن هذا غير صحيح ، فان العالم الديموقراطى الحاضر - من طريق مختلف التصريحات المبدئية بما فيها ميثاق الاطلسى - قد ذكر ايمانه بحق يفوق أى سيادة تنبثق عن الفتح ، حق الشعب فى أى بلد فى أن يحكم نفسه بنفسه ٠ وهذا ، أيضا ، من شأنه أن يعطى الفلسطينيين حقا فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فى بلادهم : فلسطين ٠

ولكن الفلسطينيين ، كما رأينا من قبل ، لم يتمكنوا قط ، عبر تاريخهم الطويل ، من أن يكونوا لانفسهم حكومة ثابتة مستقرة ٠ لم يكن لديهم الوقت الكافى ، ولم تسنح لهم الفرصة ، ذلك أنهم كانوا محط أنظار الطامعين ، وكانوا أبدا خاضعين الى احدى الدول العظمى٠

اسرائيل والاردن يحتلان فلسطين

حتى اليوم ـ كما كانوا فى الماضى دائما ـ نراهم شعبا مغلوبا على أمره ، يحكمه الغازيان الاخيران : اسرائيل والاردن ، المتمركزان فى فلسطين بحكم الامر الواقع ٠

وليس من الخير لنا أن نرجو لو لم يكن الغازيان : اسرائيل والاردن، هناك ٠ انهما هناك فعلا ٠ أن بيدهما السلطة ، ولدى كل منهما القوة لان يقولا بعناد نعم ولا لأعظم دول الارض ، وللامم المتحدة ٠ انهما يعرفان هذا ويفيدان منه فائدة تامـة ، تماما كما لو كان لهما حق حقيقى فى فلسطين ، وقوة حقيقية لتنفيذ مقرراتهما ٠

ولكن هناك زاوية لم يدركها أى منهما ٠ ففى استيلائهما عـلى فلسطين ، واحلالهما نفسيهما محل الشعب الفلسطينى ، نراهما قد عرضا نفسيهما الى مجموعة الظروف ذاتها التى جعلت من الفلسطينيين عبر التاريخ أسرى الدول العظمى الاجنبية ٠ لقد تبنت اسرائيـل والاردن مشتركتين هذا الدور الآن ، وأحلتا نفسيهما محل الفلسطينيين وجعلتا نفسيهما كبشين الفداء ٠

لنكرر : ان اسرائيل والاردن ، باستيلائهما على ملتقى الطرق ، قد وضعتا نفسيهما فى وضع لم يتمكن فيه ايما شعب عبر التاريخ من ان يبقى حرا مستقلا ٠

اسرائيل والاردن تعرضان كيانهما للزوال باحتلال فلسطين

فالوضع الحاضر لكل من اسرائيل والاردن اليوم هو ، اذن ، وضع يحدق به الخطر المميت عند ملتقى الطرق ، ومعرض فعلا من الجوانب الاربعة الى الهجوم • انهما غريبتان عن البلاد ، لا تملكان فيها سوى موطىء لاصبع من أصابع القدم ، وتحتلان مفرق طرق خطرا لم يستطع قط في تاريخه أن يبقى حرا من سيطرة الدول العظمى ، ولا يستطيع في حالة انفجار عالمي أن يبقى حرا وبخاصة الآن • لقد خطت المدنية العالمية خطوات جبارة ، وبخاصة في نصف الكرة الغربي ولكنها لم تخرج بنفسها بعد من حالة البربربة ، من حالة الميل الى الاستيلاء والافتراس - وعلى الاخص في العالم القديم • لذلك فان بوسعنا أن نكون واقعيين اذا قدرنا أن الظروف الراهنة عند ملتقى الطرق بوصفها امتداد لظروف الماضي ستستمر على أسلوب الدول العظمى نفسه في الصراع زمنه آخر ، والارجح أن يكون هذا طيلة حياة اسرائيل والاردن ، ولربما طيلة حياة عدد من خلفائها •

ان أفضل ما تستطيع اسرائيل والاردن الضعيفتان الصغيرتان أن ترجواه هو أن تقف الدول العظمى بعيدا مكتوفة الايدى ، متظاهرة بالبر والتعفف • باستطاعتهما أن تفعلا ذلك طالما أن أزمة عالمية لم تنفجر ، وشرط أن تحسن اسرائيل والاردن نفساهما سلوكهما •

أما اذا شرعت احداهما في أن تكون مصدرا للقلق ناشطا الى درجة الخطر فعندئذ ستعمد كل من الدول العظمى الى « حماية مصالحهـا الخاصة » بالقوة ، وعندئذ يستولى أسرعها وأخفها حركة على ملتقى الطرق ، وتكون اسرائيل والاردن المثلين الكاملين للشعب الذى ينمو في الصباح ليحصد في المساء •

قد يبقى بعض سكان اسرائيل والاردن (كما حدث في الماضى) ، ولكن حكومتيهم ستزولان بالتأكيد كما زالت سابقاتهما القصيرة

الاجل ، ولن تعود الى الظهور ، شانها أيضا ، ذلك أن أيا من الدولتين الصغيرتين ، المشتتتين ليست فى ذاتها من القوة بحيث تستطيع أن توطد أركانها من جديد . ان أملهما الوحيد بالبقاء هو أن تتفاديا الاصطباغ بالاضطراب والمتاعب ، وأن تتعاونا فى الاحتفاظ بالسلام المحلى على الاقل .

فهل تدرك اسرائيل والاردن هذه الحقائق المخيفة ؟

بوسعنا أن نجازف بابداء رأينا فنقول أنهما لا تدركانها ، ذلك أن تصرفاتهما لا توحى بأية دلالة على مثل هذا الادراك .

بدلا من ذلك نجد أن اسرائيل منهمكة فى منهاج من الغزو والتوسع من طريق العدوان ، ومن الاستيلاء على أقسام من بلد آخر ، ونراها ترفض بجرأة التخلى عنها .

بينما جميع الدول العربية المجاورة ، من جانبها ، تتسلح استعدادا للحرب .

الذى يبدو أن الحل الوحيد للمشكلة بأسرها هو أن تجد هيئة الامم المتحدة مشروعا جديدا يؤمن سلامة المنطقة .

ولكن الاسرائيليين ، الذين تشغلهم رؤى اعادتهم لمملكة داود وسليمان ، قد يغلقون عقولهم لحكم التاريخ : (أ) أن ليس لهم حق قانونى أو سياسى فى فلسطين ، و (ب) حتى ولو استطاعوا أن يفوزوا بالبلاد كلها ، فليس باستطاعتهم الحفاظ على استقلالهم .

ان اسرائيل لن تستسلم بسهولة ، ذلك أن لديها حجة واحدة أخيرة : « قد لا تكون فلسطين لنا من طريق الحق السياسى ، ولكنها حق لنا على أساس روحى — فهى الارض التى وعدنا وأعطانا أياها الله ان لنا فيها حقا روحيا » .

واليهود الامريكيون الذين كانوا فى ريب من حق اسرائيل السياسى فى فلسطين يكادون يكونون مقتنعين بقدر الاسرائيليين أنفسهم بأن لاسرائيل حقا روحيا فى البلاد ، وحتى فيها كلها ، ذلك أنهم هم أيضا يعرفون أنها أرض الميعاد ـ الارض التى وعدهم الله بها .

وأما بالنسبة الى المسيحيين فهذه هى الحجة التى تجعلهم يفكرون ويتناولون كتبهم المقدسة ليقرأوا فيها الآيات التى وعد فيها الله ابراهيم وسلالته بتلك الارض .

فهل لليهود حق روحى فى فلسطين ؟

هذا هو السؤال ، السؤال الاخير المتبقى ، ولكن السؤال الاهم ، ولذا يجب أن يجاب عنه قبل أن يتسنى للمشكلة الفلسطينية أن تحل .



الحقوق الروحية

وهكذا نأتى أخيرا الى الحجة الفاصلة : الى المقياس الاخير .

خلافا لما نتوقع ، فاننا سنجد ان هذه العوامل الدينية واضحة سهلة على الفهم ، ذلك أن لدينا تقريبا مثلا حيا عليها أمام أعيننا ونحن نقرأ . انها القدس .

تاريخ القدس مرتبط بتاريخ فلسطين

ان القليلين منا سيتقبلون القدس بوصفها ذلك المثل . فالسائح الحديث الذى يزور فلسطين سيهتف بسذاجة : « ماذا ! القدس مدينة روحية ! ولكنها أكثر المدن نهما وأقلها روحية ، انها المدينة التى أصيبت بأكبر قدر من الخراب والتعفن والبلى رأيناه فى حياتنا ! » لقد دعيت مرتعا للشك والجور والتعذيب ، وغولا افترس الموتى ورمى بعظامهم فوق الجدران . ودعيت أيضا بالمدينة الظالمة ، غير

المتسامحة ، المتعجرفة ، المختلسة ، الكتوم ، المخيفة العنيفة؛ الباردة فى كبريائها والمشتعلة فى كراهيتها القذرة ، المنبوذة ، السائلة ، وبالوعة الدسائس والمؤامرات • وانواحدا من أعظم كتابنا المتجولين ليقارنها بالاسد الاعفر الرابض متواعدا على قمة المرتفع « حـذرا ، حقودا ، مستعدا للافتراس • » ان القدس الخارجية قد تكون الآن كل هذه الاشياء معا •

الذى لا شك فيه انها كانت فى الماضى موطنا للعنف المرعب ، اذ عانت اثنين وعشرين حصارا ، وتهدمت مرات عديدة متكررة • لقد أبيدت ونهبت ، وكانت مركبـا ناريا للاضطهاد الحقود الضاغن ، والقتل ، والصلب ، واكتسحتها مجاعة مفجعة ، ووباء وبيل • كل هذا نعرفه نحن ونقر به •

ولكن القدس ، كما سنرى أيضا ، تجمل تاريخ العالم الغـربى الدينى بأكمله • ففى هذه المدينة وحدها نشأت ولا تزال مستمرة قصة تقدمنا الروحى بأكملها ، منذ البداءة حتى وقتنا الحاضر • وهذه القصة تحاذى التاريخ السياسى ، فهما يسيران معا جنبا الى جنب ، متأثرين أحدهما بالآخر ، ومتحدين أحيانا •

أولا ، لنضع القدس فى موضعها الجغرافى كما ورد فى الكتـاب المقدس ، ولنسمها بأسمائها المختلفة وألقابها الخاصة بها : يقول لنا سفر التكوين ، فى الفصل العـاشر ، ان الاراضى التى كانت ملكا لكنعان (ابن حام وحفيد نوح) كانت تمتد ما بين مينائى صيـدا وغزة على البحر الابيض المتوسط ، والى سدوم وعمورة على البحـر الميت ، وأنتجت كثيرا من المواطن والمدن الكنعانية، ومن بينها مدينة بيوس (التى يدعى سكانها بطبيعة الحال يبوسيين) •

يوحد الكتاب المقدس ما بين مدينة يبوس والقدس - « يبوس ، التى هى أورشليم » •

وكان هناك شيء خاص بيبوس منذ أن ذكرها التاريخ لاول مرةفي التواريخ المصرية القديمة عندما كانت،كما نعلم ، مستعمرة مملوكة، ذلك أنه كان لها لقب وصفي : أورو ـ شليم ، أي مدينة السلام ، وهكذا توطدت صفتها الخاصة منذ معرفتنا الانجيلية والتاريخية بها.

ولكن كيف كانت تلك المدينة متصلة بالله ؟

لمعرفة صلات الانسان الاولى بالله علينا أن نعود الى الوراء أقصى ما نستطيع ، فالثقات في الاديان يقولون بأن الشعوب البدائية ، مهما تعددت آلهتها المحلية الخيرة والحقودة الصغرى ، لديها أيضا فكرة ، لربما كانت قاتمة وغامضة وخيالية ، عن اله اسمى ، اله أعظم وأكثر تعاليا بصورة غير متناهية من جميع الآلهة الاخرى ،

وأخيرا تبلور هذا الشعور الداخلي الغامض بالقوة العليا في عقل الانسان وتطور خلال العصور الى أن أصبح مفهومنا الواضح بالله الأب والخالق الذى نؤمن به ونحن المحدثين اليوم ،

ولكن متى وأين تم ادراك الله أولا ، بوضوح ووعى كافيين بحيث استحث الكهنة الى خدمته فى عبادة منظمة ؟ ان علماء اللاهوت ما يزالون يمعنون فى التأمل والتفكر : هل اكتشف ابراهيم الله فى أور ؟ أم أن موسى اكتشفه فى سيناء ؟

ان الرجوع الى الكتاب المقدس ليكشف الحقيقة القائلة بأن القدس هى المكان الاول الذى دعى بمركز العبادة الكهنوتية للاله الاعلى، وأن « الكنعانى » هو أول انسان سمى كاهنا لله ،

القدس مدينة السلام الالاهى

فهل اختار الله القدس لانها كانت مدينة للسلام ، أم انها توصلت الى تلك الصفة بعد أن أقيمت عبادة الله فيها ؟

ولماذا كانت القدس البقعة الجغرافية التى اختيرت لله والسلام ؟
ان الجواب المنطقى ، أو الممكن على الاقل ، هو أن ادراك الله ووعيه قد كانا نتيجة طبيعية لعبادة اله ما أقل شأنا ، اله موضعى كان منزله صخرة أو شجرة أو ينبوعا فى الضاحية • ذلك أن القدس كان لها مثل هذا المنزل فى صخرة المريا •

هذه الصخرة العظيمة تبعث الحيرة والجزع حتى فى نفوس علماء اليوم المحدثين • فبالرغم من أن فناء الهيكل فى القدس هو القمة المستوية لحافة من حجر الكلس زبدية اللون ، فان صخرة المريا ذات سواد متلألىء ، كبيرة سائبة ومستديرة فى حجم البيت ، مدفونة الى نصفها فى الوسط الغربى من فناء الهيكل ، فى ظلام القبة الهائلة من المسجد المدعوة بقبة الصخرة المبنية فوقها •

ويحيط بالصخرة سور مشبك واق لصد السياح الذين لا يحبون شيئا أكثر من اقتطاع أقسام منها كتذكار لزيارتها • ولكن قضبان السور قد انحلت فى نقطة منه بحيث أصبح بالامكان تنحيتها جانبا

وبوسع المرء ، اذا مد يده على طولها ، أن يضع راحته على « الصخرة » • وانها لخبرة مذهلة ، بل تكاد تكون مخيفة ، فالمرء يفاجأ بارتداد يده بعيدا عن الصخرة • انها حية بطريقة مستغربة خاصة بها ، وهى تفصح لك عن هذا ، ذلك انها توصل ـ لا صدمة كهربائية بالتأكيد ـ بل حيوية ثابتة مقررة بالقدر نفسه ، ولو ان القدرة على تحديدها أقل • ان صخرة المريا لتبدو مليئة بالقوة كأنما اختزنت الطاقة منذ أن خلق العالم ، ولعلها امتصت ، كأنما على صفيحة فوتوغرافية خالدة ، موكبا من أحداث عظيمة كانت قد ظهرت هناك ، وسجلت ، كأسطوانة فوتوغرافية جميع الاصوات ، والطقوس القديمة والبركات عبر العصور ، فتختلج بها بصمت ، وتكاد تكون

على أهبة الهمهمة بها . ان المرء ليدرك أن الصخرة تريد أن تتكلم وتتحدث بشيء تشعر بأن من واجبها أن تتحدث به .

فاذا كانت هذه الصخرة العظيمة تستطيع اليوم أن تهز العقل المطلع ، فماذا كان مبلغ تأثيرها في العصور البدائية ؟ لابد أنها كانت بالنسبة الي الاقدمين الذين كانوا أقرب منا الى مصدر الاشياء ، والذين كانت آذانهم ، شأن آذان الكلاب ، قادرة على أن تميز أصواتا لا نستطيع نحن لها سماعا اليوم ، لابد انها كانت شيئا ذا قوة مخيفة ، شيئا كان صوته يسمع فعلا في بعض الاحايين ، شيئا كان باستطاعة سلطته وسيطرته أن تنمو وأن تنتشر من نسب محلية الى عالمية كونية كلما أبدى آله الصخرة قوة أعظم فأعظم ، ونما وتطور الى مفهوم جديد بالكلية — اله الكون .

ومهما كانت ظروف تطوره فان مفهوم الاله الاعلى قد كان واضحا في عقول الناس ، وأن مركز عبادته كان قد أنشيء على يدي الكنعانيين في مدينة السلام ، قبل وصول ابراهيم اليها . ذلك أنه ، هو الغريب في أرض كنعان ، نجى لوطا وغيره من سكان البلاد الغزاة الاجانب وعاد مظفرا ، « وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا . وكان كاهنا لله العلي وباركه وقال مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والارض » (تكوين ١٤ : ١٨ و ١٩) لنلاحظ هذه العبارة الاخيرة « مالك السموات والارض » ، لانها تدل على نهاية السمو والتفوق . وهكذا بارك الله العلي ، اله مدينة السلام ، ابرام . لقد تسلم البركة .

ولكي لا يكون هناك أي شك في أن هذا الاله هو الاله الذي أصبح اله ابراهيم ، لنذكر أيضا انه على أثر البركة مباشرة ، أقسم ابراهيم بهذا الاله ، مشيرا اليه بالكلمات نفسها التي استخدمها ملكي صادق : « رفعت يدي الى الرب الاله العلي مالك السموات والارض » (تكوين ١٤ : ٢٢) .

وفى الفصل الثانى ، يخبرنا المؤرخ القديم لهذا القسم من سفر التكوين عن صلاة ابراهيم : «أيها السيد الرب ماذا تعطيني؟ (تكوين ١٥ : ٢٠) .

وعن ميثاق الاله : « في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا : لنسلك اعطى هذه الارض » (تكوين ١٥ : ١٨) .

كان الامر بسيطا الى ذلك الحد . لقد وعدت أسمى قوة فى كنعان الاله الأعلى « مالك السماء والارض » ، التي كانت تشمل كنعان دون ريب ، ابراهيم بأرض كنعان .

ومن كان ابراهيم هذا ؟ من أين قدم ، وكيف ـ وهو الغريب والقادم الجديد ـ تسنى له أن يمثل هذا الدور ؟

قد يخطر لنا أنه لربما كان قريبا بعيدا لملكى صادق ، الرجل الذى باركه . ويقول الكتاب المقدس أن كنعان ، المقيم الاول فى البلاد ، ولد اليبوسيين وكان ملكى صادق ملكا على مدينة وولاية يبوس ، وهكذا فان من المنطقى أنه كان سليلا للبيت المالك ، اذن من منشىء ذلك البيت : كنعان . فاذا صح ذلك فان ملكى صادق وابراهيم كانا ابنى عم ، ذلك أن سلالتيهما كانتا قد بدأتا جنبا الى جنب بولدى نوح : حام وسام . فأما حام فقد تبنى كنعان الذى أقام فى أرض كنعان ، فى حين ان سام تبنى ارفكشاد الذى اقام ، كما يظن ، فى الجانب الآخر من بلاد العرب ، عند رأس الخليج الفارسى ، حيث استمرت سلالته فى العيش ثمانية أجيال الى وقت ابراهيم ، عندما هاجرت غربا الى الجانب الاخر من بلاد العرب ، الى أرض كنعان

فى الايام القديمة ، التى تلت الطوفان ، عندما كانت عائلة نوح ما تزال متماسكة ، اثم كنعان فأمر نوح بمعاقبته ـ بأن يكون كنعان خادما لسام . ولعل ملكى صادق عندما أعطى ابراهيم ، سليل سام ،

أرض كنعان وبركة الاله الاعظم ، لم يكن يؤدى سوى واجب معترف به ، وينفذ ما أمر به نوح ٠

الا أنه كان هنالك عقبة : ذلك أن ابراهيم وزوجته سارة كانا عقيمين ، ولم يكن لهما أولاد يرثون الارض والبركة ٠ وعندما بلغا من الكبر عتيا وتولى أملهما فى انجاب الاولاد اتخذ ابراهيم زوجة أخرى اسمها هاجر ، فولدت له اسماعيل ٠

والعرب ، الذين هم سلالة هذا الابن البكر ، اسماعيل ، يخلعون أهمية كبرى على أن هاجر ، مع أنها كانت أمة ، لم تكن محظية ، بل يسميها الكتاب المقدس زوجة ابراهيم ٠ ان سارة « أعطتها لابرام رجلها زوجة له » (التكوين ١٦ : ٣) ٠ من المنطقى أيضا أن هاجر قد جعلت زوجة لابراهيم ، لانها كانت المرأة التى رجا ابراهيم بواسطتها أن يكون له وريث غير منازع للارض والبركة ٠

ولكن عندما بلغ ابراهيم من العمر مئة عام ولد له ولد آخر : اسحاق ، من زوجته الاولى ، سارة ، وهكذا فان ابراهيم لم يكن له ولد واحد ، بل ولدان ٠

واقرارا بفضل الاله الأعلى الذى باركه وأنعم عليه بكل ذلك ، عزم ابراهيم على أن يقدم الى الرب هبة مقابل نعمته ، ورأى أن أفضل ما باستطاعته أن يهبه كان أعز ما يملك : اسحق ، ولده الاصغر ، الذى رأى أن يقدمه قربانا لله ٠ وأى مكان أجدر بأن يقصد اليه لتقديم هبته من المكان الذى كان الله فيه ؟

وترك ابراهيم بئر سبع الى أرض المريا ، ويقول التاريخ اليهودى انه بنى مذبحا على جبل المريا ، ولربما فى نفس البقعة التى كان قد تسلم بها بركة الرب ، وعلى الصخرة العظيمة العجيبة نفسها ، ورتب الحطب عليه ، ثم ربط ولده اسحاق ووضعه على المحرقة فوق الحطب وأخذ النار بيده ليشتعل الحطب ٠

في هذه اللحظة الحرجة ناداه ملاك الرب • وعندما رفع ابراهيم نظره رأى كبشا وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه ، عندئذأدركابراهيم من جديد ان الرب حفظه وعائلته ، فحمده حمدا عظيما ، وفك رباط ولده اسحق ، ثم ضحى بالكبش • وبهذا الولد الاصغر ، اسحقجدد الله عهده •

ولكن الاحتكاك العائلي أجبر ابراهيم آخر الامر على أنيرسلهاجر وولده البكر اسماعيل الى الصحراء حيث لم يبقيا هناك على قيد الحياة فحسب بل نجحا وأفلحا ، ذلك أن الله باركاسماعيل (تكوين ١٧ : ٢٠) ، ووفى بوعده الذى كرره لابراهيم بأن يجعل لاسماعيل نسلا عظيما •

وفي الوطن ، ورث اسحق أباه ، ورثه في وعدكنعان • ذلكالوعد كان في طور التحقيق منذ زمن طويل ، فقد مات ابراهيم واسحق ، وأولادهما ، الذين يدعون الآنبالاسرائيليين ، سبوا في مصر عندما هاجروا اليها ، وهربوا آخر الامر عندما قادهم موسى في خروجهم الشهير ، ثم تاهوا أربعين سنة في الصحراء ، حيث توفى موسى أيضا •

ثم غزا أبناء اسرائيل ، بقيادة يشوع ، أرضكنعانولكنهم فشلوا في افتتاحها و « سكنوا في وسط الكنعانيين والحيثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين • » (قضاة ٣ : ٥) ، حيث استعبدهم تكرارا يابين ملك كنعان ، ومدين ، والفلسطينيون •

ولم يستطيعوا الثبات والمحافظة على مركزهم الا بعد أن نظموا أنفسهم وملكوا عليهم ملكا منهم • ونحن نعرف أن داود ، ملكهم الثاني الذى كان جنديا وشاعرا في الوقت نفسه ، قهر كنعان في سنه ١٠٠٠ ق•م• ، وجعل منها مملكة اسرائيلية مستقلة ، وبذلك

تحقق الوعد الذى قطعه الله لابراهيم · **لقد تحقق الوعد بعد كل هذا الوقت الطويل** ، وكانت عاصمة داود القدس حيث كان الله قد بارك ابراهيم ·

ولكن الملك لم يرض الله ، وكانت النتيجة أن الوباء أهلك عددا عظيما من الاسرائيليين · وتجمع داود وشيوخه كي يستغفروا ربهم وهم فى ثياب المسوح · فالى أين ذهبوا لأداء هذه الشعيرة ؟ الى صخرة المريا ، ذات الحياة الغريبة ، حيث صعق داود عندما رأى ملاكا قد انتضى سيفا ·

كانت هذه الصخرة ما تزال ملكا لملوك اليبوسيين (الكنعانيين)، وكانوا يستعملونها للدراس · وقد قدم الملك الصخرة ومعدات الدراس الى داود : « الكل دفعه ارونة المالك الى الملك » (صموئيل الثانى ٢٤ : ٢٣) ·

وقد ابتاع داود صخرة المريا ، وفعل كما أمره الله فبنى مذبحا حيث كان جده الأعلى ابراهيم قد بنى مذبحا قبل قرون عديدة·ومن ثم بنى سليمان ، ابن داود ، هيكلا جميلا فى البقعة نفسها ، والمعتقد أن مذبح سليمان أمام الهيكل قد وضع فوق الصخرة ·

ومع ان الوعد قد تحقق الآن ، وتم هنا فصلاه الاول والاخير ، فهذه ليست هى المرة الاخيرة التى تظهر فيها الصخرة فى قصة تقدم الانسان روحيا ، بل انها ، على العكس ، لتظهر مرة بعد أخرى عبر العصور ، وتزداد أهمية كلما ظهرت من جديد ·

غير أنه بعد ارتقاء سليمان العرش واجهت هذه الصخرة مصيرا مشؤوما ، ذلك أن الاسرائيليين ، بدلا من أن يبقوا هناك على صفاء عبادة الاله الأعلى ، حقروها وحطوا من قدرها ، كما يقول الكتاب

المقدس • وسليمان نفسه عبد الاوثان ، وعند وفاته انقسمت مملكته التى أسسها حديثا الى قسمين •

وبدلا من أن يهجر نصفا المملكة ، أو المملكتان اللتــان انقسمت اليهما مملكة سليمان ، وهما اسرائيل ويهوذا ، خطاياهما ، فقــد استمرتا فى اثمهما ، وفى الانهماك فى جميع ضروب الخطيئة وعبادة الاوثان • وهذه الشرور اقتحمت الهيكل آخر الامر وتبدت فى طقوس دينية سرية خبيثة ـ كل هذا فى البقعة نفسها التى كان ابراهيم فيها قد استمع الى كلمات الله ، وحيث كان داود قد رأى المــلاك المنتقم مصلتا سيفه فوق القدس •

وتعاقب الانبياء وقد ارعدت أصواتهم تنذر بالهلاك ، وتناقص حجم المملكتين التوأمين كلما أمعنتــا فى الخطيئــة • وكان الله قد أنذر سليمان : « فانى أقطع اسرائيل عن وجه الارض التى أعطيتهم اياها» (الملوك الاول ٩ : ٧) « فانى أمزق المملكة عنك وأعطيها لعبدك » (الملوك الاول ١١ : ١١) • ان علينا أن نقر بأن هذه كانت أيضــا وعودا من الله •

وجاء أنبياء آخرون ينذرون بالشدة نفسها ، ولكن دون جدوى • وفى سنة ٧٢٢ ق•م• قهرت أشور مملكة اسرائيل الشمالية وسبت أهلها ، وفى سنة ٥٨٦ ق•م• لقيت يهوذا المصير نفسه عندما قهرتها بابل وسبت أهلها • **وهكذا ضاعت الارض الموعودة** •

غير أنه ، بالرغم من أن مملكة اسرائيل الشماليــة قد انحلت الى الابد ، فان أنبياء الله طمأنوا يهوذا : «سأغفر لآل يهوذا وأخلصهم•»

وقد تحقق وعد الغفران والانقاذ هذا عندما غلبت الفرس بابل على أمرها وسمحت لأسرى بابل بالعودة وبناء هيكلهم من جــديد فى القدس ، وليقيموا عبادة الله هناك • ولكن ذلك كان تجديدا روحيا

فحسب ، لا تجديدا زمنيا دنيويا ، ـ « ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب (هوشع ١ : ٧) »،ذلك انمقاطعة يهوذا لم تفز بالاستقلال، بل أضحت جزءا من الامبراطوريةالفارسية وظلتتحت الحكمالفارسى

ولقد كان للاسرائيليين ، الذين يدعون الآن باليهود لان أهالى يهوذا كانوا آخر من بقى حيا من بنى جنسهم ، حرية العبادة فى القدس ، بالرغم من أنهم كانوا قد أضاعوا الى غير رجعة الملكية السياسية للارض الموعودة التي انتقلت عبر العصور المتتابعة من الفرس الى اليونانيين الى الرومانيين •

ولقد قدر لهؤلاء الرومانيين أن يكونوا أسياد البلاد فى ابان الخطوة العظيمة التالية لتطورها الروحى • ففى بادىء الامر حكموا اليهود من طريق تابعهم الملك هيرودوس الذى أعاد لهم بناء الهيكل على جبل المريا ، حيث الصخرة العظمى ، وكان هيكلا أكبر حجما وأغنى أثاثا ورياشا من الهياكلالتى سبقته،حتى من هيكلسليمان• وأخذ اليهود المنتشرون فى جميع أصقاع الارض يحجون الى الهيكل، حاملين معهم الهبات السخية ، وسنحت لليهود الفرصة مرة أخرى لاقامة عبادة دائمة نقية صافية للاله الأعلى •

ولكن المصالح المادية طغت وأخذ اليهود يستغلون عبادة الله تجاريا ، فجباة عشور الهيكل دفعوا أنصارهم المتنافسين الى أن يقاتلوا بعضهم بعضا فىالشوارع كما يفعل اللصوص وقطاعالطرق، والصرافون ، الذين كانوا يجلسون الى موائدهم فى الهيكل نفسه ، كانوا يتخذون صفة السماسرة للكهنة الكبار ويبتزون الاموالدونما رحمة أو شفقة من الحجاج البائسين • • • •

وهكذا أعد المسرح للخطوة التالية ، التى نعتقد نحن الغربيينانها كانت أعظم خطوة فى تقدم الدين ورقيه • وهذه الحركة ، التىكانت

اصلاحا مقصودا ، انما قادها يسوع الناصرى ، من سلالة الملك داود. الذى كان قد افتتح القدس قبل ذلك بألف من السنين .

ان الله لم يبعث من قبل ناطقا رأى بمثل الوضوح الذى رأى به يسوع الناصرى امكان توحيد جميع ابناء الاب الاله ، من أوضعهم الى ارفعهم فى أخوة سلمية .

ولكن مثل هذه الاخوة السلمية تفترض الجودة مسبقة ، وعندما جاء يسوع الى القدس ، الى الهيكل المبنى على الصخرة ، ارتاع من هول ما رآه من الشرور والآثام كما ارتعد من قبله سائر الانبياء .

غير أن يسوع كان أشجع من أولئك الانبياء الذين سبقوه ، والذين اكتفوا بأن شنوا حربا كلامية على الشر ذلك أنه دلل على كلماته بفعل قوى مباشر — « ودخل يسوع هيكل الله وبدأ يخرج البائعين والمبتاعين فى الهيكل وقلب موائد الصيارف وكراسى باعة الحمام . ولم يدع احدا يدخل بمتاع الى الهيكل . وكان يعلم قائلا لهم قد كتب ان بيتى بيت الصلوة يدعى لكل الشعوب وانتم جعلتموه مغارة للصوص . » (مرقس ١١ : ١٥ — ١٧)

وبطبيعة الحال حكم كهنة اليهود الثائرون بالاعدام على يسوع ، فنفذ على يدى أفراد الشرطة الرومانية .

ولكن يسوع كان قد تنبأ بالمصير قبل أن يموت ، لا بمصير ملك اليهود السياسى ، لان هذا كان قد ضاع فعلا ، بل بزوال مركزهم الدينى : الهيكل : « فقال له يسوع أتنظر هذا البناء العظيم . فلا يترك هنا حجر على حجر الا وينقض » (مرقس ١٣ — ٢)

ولم تتحقق نبوءة خراب الهيكل بعد ذلك بخمسين عاما فحسب، ولكن القدس كلها دمرت فى سنة ١٣٥ ب.م على يدى الرومان ، وطردوا منها كل يهودى ، وبنوا مكانها مدينة جديدة رومانية بالكلية

بالكلية اسموها ايليا كابيتولينا ، وحرموا جميع اليهود أن يدخلوا اليها تحت طائلة الموت ٠

وقد دامت الامبراطورية الرومانية فى فلسطين أكثر من ٦٠٠ سنة ولكن القياصرة يموتون ، والآخرون يهلكون ، والفرمانات تتبدل ، ويعود اليهود أفرادا أفرادا الىالقدس، يجذبهم اليها ايمانهم بان موقعها مقدس ٠ ويؤسسون فيها مجامع متضعة بين المعابد الرومانية الوثنية بالهتها المتعددة ٠ والى القدس قدم أيضا اتباع يسوع بالالوف ٠كانوا مسيحيين اجتذبهم ايمان قوى مماثل بان مكان الهيكل ، حيث كان يسوع قد علم ، والشوارع التى مشى فيها حاملا الصليب ، قد قدست كلها بوجوده فيها ٠

والقد كان تعدد الاديان هذا فى كل مكان ، حتى فى المدن الرومانية الامامية القصية على طول اطراف الجزيرة العربية الكبرى ، وبلغت انباؤها مسامع محمد العربى ٠ وهكذا انطلقت الحركة الدينية الكبرى التالية ، او بالاحرى الفصل الثالث والاحدث فى تاريخ الاله العلى

فمن كان محمد هذا ؟ من الغريب أنه كان هو ايضا من أقرباءاليهود - ذلك أنه كان أيضا من سلالة ابراهيم من ولده البكر اسماعيل الذى كان اله القدس الاعلى قد باركه ٠

فلنعد الىأصل هذا الفرع المهمل منالعائلة : عندما كان اسماعيل ولدا ارسل هو وأمه الى الصحراء ، ولكنهما كان مرعيين ، وبمقتضى بركة الله أصبحا أمة عظيمة : —

« واما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ٠ ها انا اباركه وأثمره واكثره كثيرا جدا ٠ اثنى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة » (تكوين ١٧ : ٢٠) ٠

وكما كان ملك الرب قد تنبأ (تكوين ١٦ : ١٠) ، فقد تكاثرنسل

اسماعيل : ، وفى القرن السابع بعد المسيح أصبحوا يدعون بالعرب ويملأون بالافهم الكثيرة شبه الجزيرة العربيـة التى تبلغ الفـا وخمسمائة ميل طولا ــ وكان محمد واحدا منهم

ظهور الدعوة الاسلامية

ولد محمد فى سنة ٥٧٠ ب ٠ م ٠ فى مكة ، حيث يعتقد أن ابراهيم قد بنى الكعبة الحجر جاءه به من السماء الملك جبريل ، كما اعتقد بأن هاجر واسماعيل قد دفنا هناك ٠

وهكذا فأن محمدا قد كن واعيا لتراثه ،وقام بتذكير أخوانه العرب بتراثهم ــ باله جدهم ابراهيم

وأدرك محمد بغيظ متزايد ان الله قد انزلت درجته الى واحد من آلهة كثيرة فاصبح نبى الله ، داعيا الى عبادة الاله الاعلى الواحد ، الاحد ٠ « رب ابراهيم » ٠ ومرددا ابدا : « لا اله الا الله ٠ »

ولقد كان هذا تجديدا قويا ، أقوى من ان يظل محصـــورا فى الصحراء ٠ وهكذا تفجر فى هجوم كاسح على أولئك الذين اعتبـــر محمد انهم هجروا الله وغدروا به ٠

فمن كان اولئك المذنبون ؟ كان اليهود فى رأى محمد أولهم ٠

ولقد ادرك محمد ادراكا تاما هبة الله الكبرى لابراهيم الجد الاعلى للعرب واليهود معا : « ٠٠٠ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمـة وآتيناهم ملكا عظيما » (النساء ٥٤)

انه لم يشك فى أن الله قد اختار» اليهود، ولم يشك فى أن الله قد اختار ابن ابراهيم الثانى اسحق ، جد اليهود ، بدلا من ابنه البكر اسماعيل ، الذى كان جد العرب ، فلقد كانت هذه حقائق تاريخية لا مجال للشك فيها ٠

ولكن ما قــال به محمد هو أن اليهود قد نقضوا عهدهم : « ... فلعنة الله على الكافرين .. بئسما اشتروا به أنفسهم .. » (البقرة ٨٩ و ٩٠)

واذا كان الله قد اختارهم ، فقد فشلوا ونقضوا ميثاقهم نقضــا لا نزاع فيه ، ذلك انهم ادينوا من أفواه أنبيائهم بالذات ، وكذلك ادانتهم الاحداث أيضا ، لانهم فشلوا فى الحفاظ على الارض الموعودة بأن أضاعوها ، ونتيجة لذلك فان الشرق الاوسط بأكمله ، بما فيه القدس ، المدينة التى بورك فيها ابراهيم نفسه ، قد حبــــل الآن بمعتقدات غريبة .

ومن أجدرهم بتقويم هذا الخطأ العظيم من اولئك المتحدرين الاخرين من سلالة ابراهيم الذين ظلوا أوفياء لرب ابراهيم ، وبكلمة أخرى ، العرب أنفسهم ؟

وفى رأى محمد كان هنالك أيضا خطأ آخر اقترفه اليهود ، فحق عليهم بسببه العقاب ـ « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مــــريم رسول الله ... » (النساء ١٥٧) .

غير أن أتباع عيسى المسيح تحققوا بنصيبهم من ادانة محمد ، ذلك انهم فى اعتقاده قد تحولوا عن تعاليم المسيح : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم .. » (سورة المائدة ٧٢) .

كما رفض محمد الوهية المسيح : « .. سبحانه أن يكون له ولد .. » (النساء ١٧١) .

كذلك قال محمد بأن جميع الاوثان الرومانية واليونانية والمحلية يجب ان تمحى : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (الانعام ١٦١) .

كما حرم عبادة الاجرام السماوية التى كانت منتشرة انتشـــارا واسعا فى بعض اجزاء الشرق الاوسط : « ... لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ... » (السجدة ٣٧) .

واعترف محمد بكثير من أنبياء الله ورسله : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون » . وقد شمل محمد نفسه بهؤلاء الانبياء : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله . »

غير أن محمدا ، بهذا الاعتقاد القائل بان لا اله الا الله ، قد رسم خطا فاصلا واضحا بين الرسل ، وهو منهم ، وبين الله : « ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ... » (آل عمران ٧٩) .

وأعلن محمد حربا مقدسة وقال لاتباعه (الذين دعوا أنفســـهم مسلمين ودينهم الاسلام) : « كتب عليكم القتال .. » (البقرة ٢١٦)
ولم يكن العرب بحاجة الى أمر آخر ، فخرجوا من الصحـراء ، بأعداد لا تحصى ، وباندفاع لا مثيل له الا لدى من يصممون على محو الشر ، ففتحوا الشرق الاوسط باكمله .

والمسلمون الصالحون يؤمنون بأن محمدا نفسه قد اسرى الى القدس وأنه صعد من صخرة المريا على حصانه الابيض ، البراق ، الى السماء .

واستولى العرب على القدس ، وثبتوا فيها دعائم عبادة الله من جديد وحافظوا عليها باستمرار طوال ألف وثلاثمائة سنة حتى وقتنا الحاضر ان باستطاعة اشد الحجاج فقرا ان يذهب الى قبة الصخرة حيث يعبد الله هناك بحرية تامة كالملك نفسه .

والقدس فى نظر العرب مدينة مقدسة — فجدهم الاعلى ابراهيم

قد بورك فيها وصعد محمد منها الى السماء ، ومن القدس نفسها سيبعث المسلمون يوم القيامة عندما يحاكمون على ضوء قدرتهم على السير على شعرة من حصان (يمسك محمد بطرف منها ويسوع بالطرف الاخر) تمتد من جبل الزيتون عبر وادى قدرون الى قبة الصخرة ·

ان العالم الغربى لا يضفى على دين محمد سوى قليل من الاهمية غير أننا يجب ان لا نقلل من شأنه · فالمسلم التقى الورع يؤمن بأن صعود محمد الى السماء حقيقى كما يؤمن اليهودى بأن موسى تلقى الوصايا العشر على جبل سيناء ، أو كما يؤمن المسيحى بأن يسوع انما ولد فى مذود · ولكن ما هو أهم من هذا أن هذا الدين كان الارادة المباشرة التى محت نهائيا عبادة الشمس والقمر ، فى ذلك الجزء من العالم حيث كانت متأصلة الجذور الى حد كبير · كذلك حرر هذا الدين الشرق الاوسط تحريرا تاما ونهائيا من البقايا الاخيرة لعبادة الاوثان بحيث ان المسلمين ما يزالون يهلعون لفكرة الاوثان من أى نوع كانت – فهم يعبدون الله وحده · انه اليوم دين الملايين من الخلق · ، وأشدهم جهلا ينبئك باقتناع وايمان تامين بأن الاسلام هو العبادة الوحيدة الصافية لله ، ذلك أنه خال من أى زخرف أو زينة ، وأنه الدين الوحيد الذى لم يستغل لاغراض تجارية

عندما يحين وقت الصلاة ، فان المسلم ، فى حيثما كان ، فى الحقل أو بالقرب من الطريق · يسجد للصلاة · انه يولى وجهه شطر مكة المكان الذى بنى ابراهيم فيه الكعبة ، ولكنه يصلى لله ، ولله وحده ·

هؤلاء العرب اذن هم الذين يقفون اليوم على الجانب الشرقى من خط الهدنة فى فلسطين · انهم يواجهون ، فى الطرف الآخر من الخط الى الغرب ، اليهود ، الشعب الذى يعتقدون انه قد نقض عهد الله ·

أما اسرائيل فانها من ناحية أخرى تعتبر ادعاءاتها قائمة على أساس أن الوعد لا نزاع ولا جدال فيه ، وتطالب باسرائيل موسعة (تشمل

لنقب وادوم ومؤاب وعمون وجلعاد) ، أى ما يعادل مملكة داود وسليمان التى تحقق بها الوعد • ولكن مملكة داود وسليمان لم تدم أكثر من ٧٣ سنة ، كما رأينا من قبل ، مما يجعلها من الفئة القصيرة الامد ، وينقض حجة اسرائيل •

ان ارض الميعاد الحقيقية لم تمتد الا من دان الى بئر سبع طولا ، ومن الاردن الى البحر الابيض المتوسط عرضا • وعندما قاد موسى الاسرائيليين القدامى حتى قادش برنيع كان فى النقب ، وكان مايزال خارج ارض الميعاد ، ذلك انه بعث برجال عبر الحدود « لاستطلاع البلاد » • وعندما استدار موسى باتباعه حول الحدود الشرقية ووقف على الاعالى وراء الاردن كان ما يزال خارج ارض الميعاد التى منع موسى من الدخول اليها ، وهكذا فليس من شك فى أمر مؤاب وعمون وجلعاد فهى والنقب لم تكن مشمولة بالوعد قط • واذن ، فاذا كانت اسرائيل الحديثة لا تتبدل ، فان عليها أن تسلم النقب ومستعمراتها الى الشرق من بحيرة الحولة والجليل ، وان تنسحب الى داخل حدود الارض الموعودة •

ولكن ما شأن شرعية الوعد بالنسبة الى فلسطين الاصلية ، داخل حدودها المعترف بها من دان الى بئر سبع ومن الاردن الى البحر الابيض المتوسط ؟

لا شك فى أن الوعد ، فى تلك المنطقة ، قد اتاح أكثر الادعاءات شرعية •

ولكن الحقيقة الكبرى التى تتغاضى عنها اسرائيل الحديثة هى **ان الوعد قد انجز** • لقد انجز منذ زمن طويل ، وأكثر من ذلك ، لان مملكة داود وسليمان ، كما سبق أن رأينا ، قد شملت من الاراضى أكثر مما اشتمل عليه الوعد •

والحقيقة الاخرى التي هي أكثر أهمية هي هذه : **لقد أضيع الوعد لقد بلغ ، ثم أضيع ، وانتهى ، وكل ذلك في العصور القديمة**

ولقد كانت تلك الخسارة محتومة منذ ان بدأ اليهود بالتآمر مع الدول العظمى الخارجية • مما يجب أن يعنى مغزى ادبيا بالنسبة الى اسرائيل الحديثة ، ذلك أن ايما دولة أجنبية ، متى استنجد بها بسبيل الحماية ، عليها أن تدخل البلاد لتوطيد تلك الحماية ، وهكذا تفقد الدولة الصغيرة أعز ما تملك - حريتها - ويستولى عليها الصديق لا العدو ، كما أضاعت فلسطين الشرقية ايضا حريتها وتنازلت عنها الى حاميتها الصديقة : المملكة الاردنية الهاشمية، وكما ستضيع اسرائيل الحديثة حريتها وتتنازل عنها الى أية دولة أجنبية تدخل أراضيها بسبيل حمايتها •

عندما فتح البابليون القدامى يهوذا ، البقية الباقية من المملكة اليهودية ، زال وجودها السياسي كدولة الى الابد • وعودة اليهود الى فلسطين ، وبناؤهم لهيكلهم من جديد بقيادة عزرا ونحميا لم يتما على يدى شعب حر ، بل على يدى شعب كان خاضعا للفرس • لقد كانت اعادة روحية ، لا سياسية • (المغزى الادبى رقم ٢) •

وتلك الاعادة الروحية التي فاز بها رجال ذوو استقامة وعدل ، والتي تمثلت في اعادة بناء الهيكل ، قد تعرضت للخطر تكرارا في الاجيال التالية من طريق الحروب اليهودية وتقوضت اركانها نهائيا بانهدام الهيكل في سنة ٧٠ ب • م • ، وحصول التشتت في سنة ١٣٥ ب • م • (المغزى الادبى رقم ٣) •

وهكذا فنحن نعرف ان الوعد قد انجز في الازمنة الغابرة واضيع •• وعلى هذا فان أى ادعاء حديث قائم على أساس ذلك الوعد لا صحة له ، ذلك أنه اكان عقدا انجز وانتهى اجله منذ امد طويل •

واذا طبقنا طريقة المقارنة التى استعملناها فى القسم التاريخى ، فان علينا أن نقر بان الوضع الدينى للعرب هو الوضع الافضل .. فهم قد التحموا بالكعنانيين الوطنيين ، وبطريقة ما أصبحوا ورثاءهم الروحيين ، الكنعانيين الذين كانوا أول من أقاموا عبادة الاله الاسمى مما يعطيهم الاسبقية . ولقد حرس المسلمون طيلة ألف وثلاثمائة سنة مدينة القدس المقدسة ، وهو رقم قياسى فى الاستمرار لم يفقه أي من أتباع الامه الآخرين ، مما يعطى المسلمين الآن الملكية الراهنة

والعرب يشعرون فى الازمة الحاضرة بأن اليهودى ليس له قدم يقف عليها . فاذا كان الله قد اختاره ، فانه قد تخلى عن الله واتبع آلهة اخرين ، ومن طريق الارتشاء والطمع فى الربح خسر اليهـود الارض المقدسة .

وبعد أن خسروها لاول مرة وعدهم الله وأعطاهم فرصة ثانيـة لارجاع مركزهم الروحى : القدس ، ولكنهم أضاعوا هذا أيضا ، ومن ثم غاب اليهود وابتعدوا عن فلسطين طيلة ألف وثمانمائة سنة .

وبالرغم من هذا الغياب الطويل ، ومع أن الله لم يكن قد وعـد برجوع ثان بعد التشرد الرومانى ، فان اليهود المحدثين غزوا فلسطين بطرق مختلفة ، وانشأوا دولة اسرائيل ، وحاولوا مؤخرا الاستيلاء على القدس نفسها وانك لتسمع العرب القاطنين فى القدس يقولون جادين : ان الله قد صان المدينة المسورة وحفظها من اليهود .

ومن ناحية أخرى فان العرب ليشعرون بأن وضعهم الخاص سليم لا يمكن مهاجمته . انهم الشعب الوحيد المخلص لله ، وهم قد خلصوا المدينة المقدسة ورعوها وصانوها طيلة ألف وثلاثمائة سـنة ، ولا ينوون اطلاقا أن يسلموا مقر عبادة الله هذا الى من يعتبرون أنهم قد دنسوه وكانوا تكراراً غير أوفياء لله فى الماضى .

هذا هو وضع العرب ، سواء شئنا أو أبينا • انهم لا يستطيعون ان يفهموا كيف أن باستطاعتنا نحن الغربيين ان نرى أى عدل فى ادعاءات اليهود • والعرب أنفسهم يرون الحالة كلها ببساطة كلية ، ويرون حقهم ، وخطر اليهود ، فلماذا لا يستطيع العالم الغربى أن يراه ؟ وبصورة خاصة : لماذا لا يستطيع الامريكيون رؤيته ؟ لماذا يستمرون فى مؤازرة اليهود ومعاضدتهم ، بل لماذا يجهرون مرارا بالرأى الغريب القائل بان اليهود من جميع الشعوب يجب أن يعطوا القدس ؟

والى أن ندرك — نحن الامريكيين — وجهة نظر العرب هـــذه . وايمانهم الدينى العميق بتعدى اليهود ، فليس بوسعنا أن نتفهم تفهما حقيقيا ذلك الشئ الذى يفرق مابين العنصرين • ومتى تفهمنا ذلك فعلا ، فعندئذ نرى أن هذا التاريخ الدينى الماضى هو السبب الحقيقى للتفرقة • وانه من العظم بحيث يبدو خط الهدنة ، وذلك الشق السياسى الدقيق كالشعرة بين اسرائيل والاردن ، وكأنه قد أصبح عريضا كالمحيط لا يمكن أن يصل ما بين ضفتيه شئ •

ذلك أنه عند الجانب لآخر يقف اليهود • ان الوعد ، عنـــدما أضيع ، لم يجدد أبدا ، ولكنهم يتجاهلون ذلك • وبعداوة الخاسر المصمم على استعادة ما خسره يواجهون العرب ويقفزون الى الامـــام كلما رأوا ضعفا فى الخط ، مصممين على أنهم الآن ، مرة أخـــرى ، بكل ما لديهم من غنى فاحش سيستعيدون القدس ، المقر الدينى الذى كانوا يملكونه منذ ثلاثة آلاف سنة •

فهل يمكن ازالة الهوة العميقة بين العنصرين ، ومحوها ؟ واذا كان هذا العدوان منذ أقدم العصور يقابل بعضهما بعضا كما يتقابل المتحاربون ، فهل يمكن أبدا تسوية خلافاتهما واحلال السلام فى

الشرق الاوسط ؟ كيف يتأتى لاية لجنة تابعة للامم المتحدة أن تحل هذه المشكلة ، كيف يمكن لاية معاهدة أن تعقد ؟ ومن أين يجب أن نبدأ ؟

وليس باستطاعتنا تجاهل الدين المسيحي . ان العالم المسيحى ليس له أية ادعاءات دنيوية هنا على الاطلاق ، ولكن يسوع علم هنا وبدأت المعتقدات التى يعتنقها اليوم العالم الغربى بأسره ، وقدم حياته هنا بدلاً من أن يرجع عن تلك المعتقدات . وكل ما كان لدى العالم الغربى من مسيحية بناءة ـ من مثل الشفقة الناشطة ، واطعام المسكين ، وانقاذ المنكودين ، والعناية بالمرضى و (الامم المسيحية لتبذل فى هذا السبيل بأكثر مما يبذله سائر العالم مجتمعا) ـ هو النتيجة المباشرة لما بشر به يسوع من أن كل انسان من الناس « حتى أقلهم » هو أخ لنا ..

والمسيحية ، من بين الاديان الثلاثة الممثلة فى القدس اليوم ، أكثرها حيوية الى حد بعيد ، ذلك أنها تقوم بهذه الاعمال المجيدة هناك . وبالرغم من أن المدينة هى فى أيدى المسلمين ، فانها وطن عدد لا يحصى من المؤسسات المسيحية الناشطة ، من مثل كنيسة القديس جرجس الانجيلية ، والكنيسة اللوثرية للمصلح الدينى والمقر العام للاتحاد اللوثرى فى الشرق الاوسط ، وكنيسة القديسة آن ، والمعهد الفرنسيسكانى الكتابى ومكتبته ، واخوات رهبنة اورشليم ، وكنيسة القديسة كاترين ، ومدرسة اليتيمات الفرنسيسكان ، وكنيسة القديس ميخائيل ، وكنيسة سيدة صيدنايا ، ومدرسة الايتام الفرنسيسكان ، وكنيسة القديس فاسيليوس ، وكلية الفرير ، وكنيسة القديس ثيودوسى ، وكنيسة

القديس نقولا ، والبطريركية الارثوذكسية اليونانية ، والبطريركية اللاتينية ، ومدرسة القديس مترى ، وكنيســـة القبر المقدس ، وكنيسة جميع الامم ، والكنيسة الروسية الارثوذكسية ، ورهبنة انكرمليت ، وكنيسة القديس اسطفان ، ومكتبة الآباء الدومنيكيين، والدير البندكتيني وكاتدرائية القديس جايمس ، ودير القديس ابراهام ، والبطريركية الكاثوليكية اليونانية ، ومدرســة القديس يوسف للبنات ، والرهبنة المارونية ، والدير الارثوكسى السورى ، والدير الارثوذكسى الارمنى ومكتبته ، والبطريركية الارثوذكسية الارمنية ، وكنيسة المسيح وكثير غيرها .

واذن فهذا هو التاريخ الدينى ، الماضى والحاضر ، لمدينة القدس ، مدينة أوروشليم ، مدينة السلام ، وتبدل الاسم من القـــدس الى مدينة السلام قد كان أكثر من تبدل فى الحروف ، ذلك أنه كان رمزا للتبدل المفجع الذى تم على يدى الفاتحين الكثيرين وحطوا من قدر المدينة .

ان مصير القدس المثالى ، والنتيجة الملائمة لتاريخهـــا الدينى العظيم ، هى أن تكون مزارا عالميا لله ؛ مباحاً لجميع المؤمنين بالله ، والأمم المتحدة نفسها قد اعترفت بصفة القدس الوحيدة كمدينـة مقدسة .

ولكن ما هو شأن فلسطين ، البلاد بكليتها ؟ هذه هى المشكلـــة الحالية . انها مشكلة خطيرة ، لانها تهدد السلام العالمى بالخطر .

فهل القوة العسكرية هى الحل ؟ لا . تلك أسرع طريقة للحرب . وفضلا عن ذلك ، فليس هناك قوة عسكرية ، سواء فى داخـــل فلسطين أو خارجها ، هى من القدرة بحيث تستطيع حماية اسرائيل والاردن من الانطفاء اذا ماقررت الدول العظمى أن تتدخل ، وبعض

هذه الدول تنتظر حجة تتذرع بها . ان القوة لا تستطيع ايقافها ، لانها الاقوى .

والمشروع الوحيد الذى اقترحته الامم المتحدة هو مشروع وصاية يديرها محليا حاكم تعينه الامم المتحدة ، مما يعود بنا تماما الى أيام القدس تحت الانتداب الذى منحته عصبة الامم ، والذى نعرف نتائجه معرفة جيدة !

كلا ... لنبتعد مرة واحدة وأخيرة عن طريق التفكير بالوصاية ، فالتعبير ينطوى على احتمالات كثيرة من العنف فى ظل السيطرة الساكنة .

وبالرغم من أن الديموقراطية الحديثة العظمى قد وضعت هدفا ممتازا مثاليا ـ الحكم الذاتى المستقل لكل أمة فى العالم ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ـ فان الاستقلال ليس هو الجواب فى هذه الحالة . فلو أن جميع الامم كانت على قدر متساو من الاهميــة والخطورة اذن لكان بالامكان التحقق بهذا الهدف آخر الامر . ولكن فلسطين هى بقعة خاصة ، ملتقى طرق ، ولنعترف بحقائق الحياة: ان الدول المستقلة هناك لم تتمكن طوال التاريخ كله من أن تبقى حرة ، وانها لما كانت الظروف العالمية الحاضرة امتدادا للظروف العالمية الماضية لا تستطيع أن تبقى حرة الان . ان اسرائيل والاردن مستقلتان فى الوقت الحاضر ، لكن مشكلتهما لم تحل ، والاستمرار على هذا النهج باطل عقيم . ليس باستطاعتنا الا أن نستنتج أن فلسطين بوصفها بقعة خاصة تتطلب حالة خاصة وحماية أوسع ، وأن علينا أن نحاول النظر الى المشكلة الفلسطينية على أساس جديد ومختلف جذريا .

ولكن لاسرائيل وللعرب القدرة على ان تقولا نعم ولا ، ولا يمكن التوفيق بينهما .. فما هو الشىء الذى يجب أن يعمل اذن ؟ اذا لم تتبدل اسرائيل واذا لم تتبدل العرب فلا يبقى سوى شىء واحد :

ان الظروف والاوضاع يجب ان تتبدل • والواقع أن الظروف والاوضاع يجب أن تتبدل ، فكيف يتسنى تحقيق ذلك ؟

الامر الضرورى الأول أن نبدل من تفكيرنا ، وأن نبتعد بالكليه عن الحلين الوحيدين المعروفين الآن : الوصاية ، أو الاستقلال بعد معاهدة صلح بين الدولتين •

أما « الوصاية » ، بما تتضمنه من القصور في الداخل والسيطرة من الخارج ، فمن شأنها أن تكون حلا مهينا شحيحا ، وخطوة الى الوراء نحو الاقطاعية • ونذهب الى أبعد من هذا فنقول أن هذه الكلمة مكروهة ومولدة للاضطراب والفتنة ، وباعثة بصورة آلية على نماذج بشعة من التفكير والانعكاسات العنيفة ، واذن فإن الوصاية يجب أن لاتؤخذ بعين الاعتبار •

وأما الاستقلال الذى شأنه أن يبدو مضمونا بعد معاهدة الصلح ، فسيثبت اذا ما نشبت حرب عالمية أنه أسرع الطرق الى الانطفاء •

ولكن ماذا هناك غير ذلك؟ ان مهمتنا هى أن نجد وأن نقدم للعرب واسرائيل حلا جديدا مشوقا • وهذا الحل يجب أن يكون صالحا ، وأفضل مما لديهما الآن ، والا كان جوابهما بالنفى •

والواقع أن ما لدى كل منهما الآن ضئيل بصورة تدعو الى الشفقة ، لو أنها فقط تتوقف عن الصفير فى الظلام وقتا يكفي للاعتراف بذلك • ان ايا منهما لا تستطيع أن تحافظ على النظام ، وكلتاهما بحاجة يائسة الى المال ، كما أن أيا منهما لا تستطيع الخروج حية من حرب عالمية بل ان كلتيهما لتزدردان ازدرادا وتمسحان مسحا • وهكذا فاننا اذا كنا مساومين شحيحين ، فلن يكون علينا أن نعرض الكثير •

ولكننا لسنا مساومين شحيحين • اننا نخجل من ان نعرض شيئا ضئيلا• انالعالم الحديث شعورا مرهفابقيمة الانسانوكرامته واننا لنشعر بأن الافضل ليس كثيرا على شعب فلسطين • اليهود والعرب معا ـ الكنعانيين ، الذين لربما عانوا طوال التاريخ باكثر مما عانى غيرهم فى أية بقعة من بقاع الارض • ان ايما مشروع يعرض يجب أن يكون قائما على مثالية سامية ، وخطوة اخلاقيـــة الى الاعلى ، يجب أن يكون شيئا تقدميا ومشروعا يجلب ومضة من السرور للعين والامل للقلب ، مشروعا يعيد الثقة فى طيبة الى الله والانسان

والامكان الوحيد الباقى هو اقامة حاجز أدبى ما من القوةبحيث يكون بمثابة سور ، كذلك الحاجز الادبى الذى يصون الفاتيكان فى أيامنا هذه •

ولكن الحاجز الادبى الذى يصون الفاتيكان لم توجده أية عوامل خارجية ، بل أوجدته صفة المؤسسة نفسها •

واذن : فان حاجزا أدبيا لفلسطين يمكن اجاده لا بفعل اى شيء من الخارج ، بل يتبدل فى صفة فلسطين نفسها ، فقط يرفعها الى حالة سامية جدا بحيث يعترف الرأى العام العالمى بطهرها وحرمتها . ولا يسمح بأى خرق لهذه الحرمة •

فكيف يتأتى لنا تحقيق ذلك ؟

أولا ، ما هى صفة فلسطين الآن ؟ ما هو الشيء الذى يجب أن نعالجه • ؟

نحن نعرف ، وما احسن ما نعرف أن فلسطين اليوم وانهــا كانت آلافا من السنين ، ملتقى طرق مدوس ممتهن تتناقله الايدى كحجر الشطرنج وأن شعبها قد غزى وتوجر به واستعبد • وانها كانت محمية حينا وتابعة حينا آخر ، وانها اخضعت للانتـــداب .

والحقت بغيرها ، وقطعت اوصالها ، ودمرت • وعريت ، وأحرقت ، وقسمت تقسيما •

ولكن لربما ليست هذه صفتها • لعل هذه ليست سوى ندبات خارجية انزلتها بها أحداث خارجية متكاثرة ، فلننظر ، اذن • الى ما تحت هذا السطح المسحوق •

ويقول تقرير الامم المتحدة لسنة ١٩٤٧ عن فلسطين فى الصفحة ١٤٦ : « (أ) تحتل فلسطين ، كأرض مقدسة ، وضعا فريدا فى العالم انها مقدسة فى أنظار المسيحيين واليهود والمسلمين على السواء •• والمصالح الروحية لمئات الملايين من معتنقى الاديان الموحدة العظمى ذات صلة وثقى بمسارحها وأحداثها التاريخية ولذا فان أى حل للمشكلة الفلسطينية يجب أن يراعى هذه المصالح الدينية • »

فلو اننا توقفنا فقط بسبيل ان نتذكر اذن لادركنا أن هذه القطعة من الارض هى اخصب معنى من أى بقعة أخرى من حجمها فى العالم والقدس ليست وحدها — ذلك أن كل قدم تقريبا من فلسطين بأجمعها ذات أهمية دينية وتاريخية وأثرية • **وهل نسينا أن هذه الارض المقدسة ، المنقطة بالمواقع المحببة المقدسة فى أنظار العالم المسيحى — التلال التى بشر فوقها المسيح ، والآبار التى توقف عندها وشرب وعلم الصفح والغفران • والطرق التى مشاها وهو يلقى امثولات الاحسان والوداعة والاتضاع ؟ ههنا القرى التى أوى اليها وتقبل جميع الناس ، حتى الخمارين والخطاة ، اخوانا له • ههنا المكان الذى ولد فيه ، بيت لحم • ههنا بيت طفولته ، الناصرة • ألسنا • نحن المسيحيين • نذكر كل هذا ؟ أليس من واجبنا أن نتكلم ، وأن نذكر انفسنا بأن لنا نحن أيضا صوتا فى هذه الارض ؟**

وفى فلسطين اماكن لها القداسة نفسها فى أنظار اليهود • كانت بيت لحم هى أيضا المكان الذى ولد فيه داود النبى • وتحت بلوطة ممرا احتفى ابراهيم بالملائكة على حين غرة • والاسرائيليون شربوا عند

نبع اريحا ، تلك المدينة المشهورة نشيدا وقصة • وعلى جبل جلبوع ذبح ابناء شاؤول ومات هو معهم • وخرائب أبنية سليمان ما تزال قائمة في مجدو ، وفي شكيم انتقم ابناء يعقوب لشرف اختهم ، وفي دوثان باع يوسف اخوته • وعند صخرة المريا نفسها رأى داود الى الملاك منتضيا سيفه المضطرم ، وارعدت اصوات الانبياء عبر الاجيال المتعاقبة مشهرة ومنددة بفعل الشر •

وهذه الارض مقدسة كذلك في أعين المسلمين فابراهيم ، جدهم وجد اليهود الاعلى كذلك • مدفون في حبرون ، والمسلمون يحرسون ذلك القبر باكبر قدر من العناية والحيطة ، ويؤمنون بأن النبي محمدا قد صعد الى السماء من القدس ، ويحرسون ذلك المكان ايضا •

وان هناك ايضا لتاريخا عظيما ، كانت مجدو الساحة الشهيرة للمعركة المدعوة بـ « ارمجدون » • ومن صور ، حيث كان الشعب الصوري ذا شأن، كان التجار يتاجرون مع عالم البحر الابيض المتوسط وان خرائب عظيمة ما تزال ترى حيث كانت المدن الرومانية الساحلية وشهدت حطين هزيمة الصليبيين وفقدان الصليب الحقيقي • مؤكد أننا لم ننس هذه المعاني الدينية والتاريخية ، ففي فلسطين كل هذه الاماكن وغيرها مما لا يحصى من المواطن التي تكاد تضاهيها اهمية

لننقذ ، اذن ، هذه الارض المقدسة من ايدي المتنازعين ونخلع عليها الوضع الذي تستحق ، إن تحت ندباتها صفة على أعظم جانب من النبل • فلنعامل هذه البقعة المقدسة كانها ملك عظيم ، ولنلبسها الحلل الجميلة ، ونجلسها على عرش ، ثم لنتوج رأسها بتاج يقدم له الجميع الخضوع والطاعة • ولنعيدها الى اصحابها الشرعيين •

لنفعل هذا • هذه الارض هي مزار الله والاديان الثلاثة الكبرى — فلنجعلها مزارا مزارا دوليا ، الاول يحق لنفعل هذا •

وبذلك تستقر الامور وتستقيم الاحوال • هذا هو الحل

المراجع

١ ـ التقويم وكتاب الحقائق العالمية بالولايات المتحدة الامريكية

٢ ـ وثائق الامم المتحدة « هيئة الامم المتحدة »

٣ ـ مجلة تايم الامريكية

٤ ـ الهدنة للكومندور ماتشينسون « عضو لجنة الهدنة الاردنية الاسرائيلية

٥ ـ تاريخ البرايت

٦ ـ القرآن

٧ ـ الانجيل

٨ ـ التوراة

الفهرس

صفحة


البترول
عماد الصناعة
فى الجمهورية العربية المتحدة
نحو مجتمع ديموقراطى
اشتراكى تعاونى
الجمعية التعاونية للبترول
تمد كافة الصناعات بالمواد البترولية
تخدم الاقتصاد القومى .
البترول العربى فى يد عربية
وفى خدمة الصناعات العربية

الدار القومية للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

٣٠ شارع منصور – القاهرة

ص ٠ ب ٢٣٩٨

هيئة قناة السويس

مشروعات الهيئة لمدينة الاسماعيلية

لا تدخر هيئة قناة السويس وسعا فى سبيل المساهمة فى كافة النواحى التجارية والصناعية لمنطقة القنـــاة ، بغرض تنشيط التجارة فى هذه المنطقة وايجاد عمل لاكبر عدد ممكن من اهاليها وتوفير القسط الاكبر من الانعاش الاجتمـاعى لمختلف طبقات الشعب .

ومن بين المشروعات التى ساهمت الهيئة فيها مسـاهمة ايجابية بالنسبة لمدينة الاسماعيلية :

- مشروع انشاء الترسانة البحرية بالاسماعيلية وقـد ساهمت الهيئة فيه بخمسين الفا من الجنيهات .
- مشروع انشاء مصنع للسفن بالاسماعيلية ، ويقـدر احتياج البلاد من انتاجه بمايوازى خمسة ملايين جنيه سنويا .
- مشروع انشاء شركة الاسماعيلية لصناعة الاخشـاب والمواد العازلة ، وقد كانت هذه الصناعة وقفا على الدول الاجنبية .

هذا فضلا عن المشروعات التى قامت الهيئة بتنفيذها فعلا مثل :

- كورنيش الاسماعيلية على بحيرة التمساح ويبلغ عرضه ٤٠ مترا وسينشأ عليه كوبرى متحرك ليسمح بالمرور بين جانبى البحيرة .
- مدرسة قناة السويس للتمريض بالاسماعيلية .

وقد قررت الهيئة اعتبار الاسماعيلية مقر المركز الر[illegible] لما لمثل هذا القرار من أثر كبير فى انعاش المدينة ، و[illegible] بالذكر أن الهيئة تدفع مالايقل عن ربع المليون من الـ[illegible] لبلدية الاسماعيلية ضريبـــة أرباح تجارية تنفق بأكم[illegible] المشروعات العمرانية التى تحتاجها المدينة .

الكتاب ١٥٠ الثمن ٣[illegible]

صدر يوم الاحد ١٣ مارس (آذار) سنة ١٩٦٠